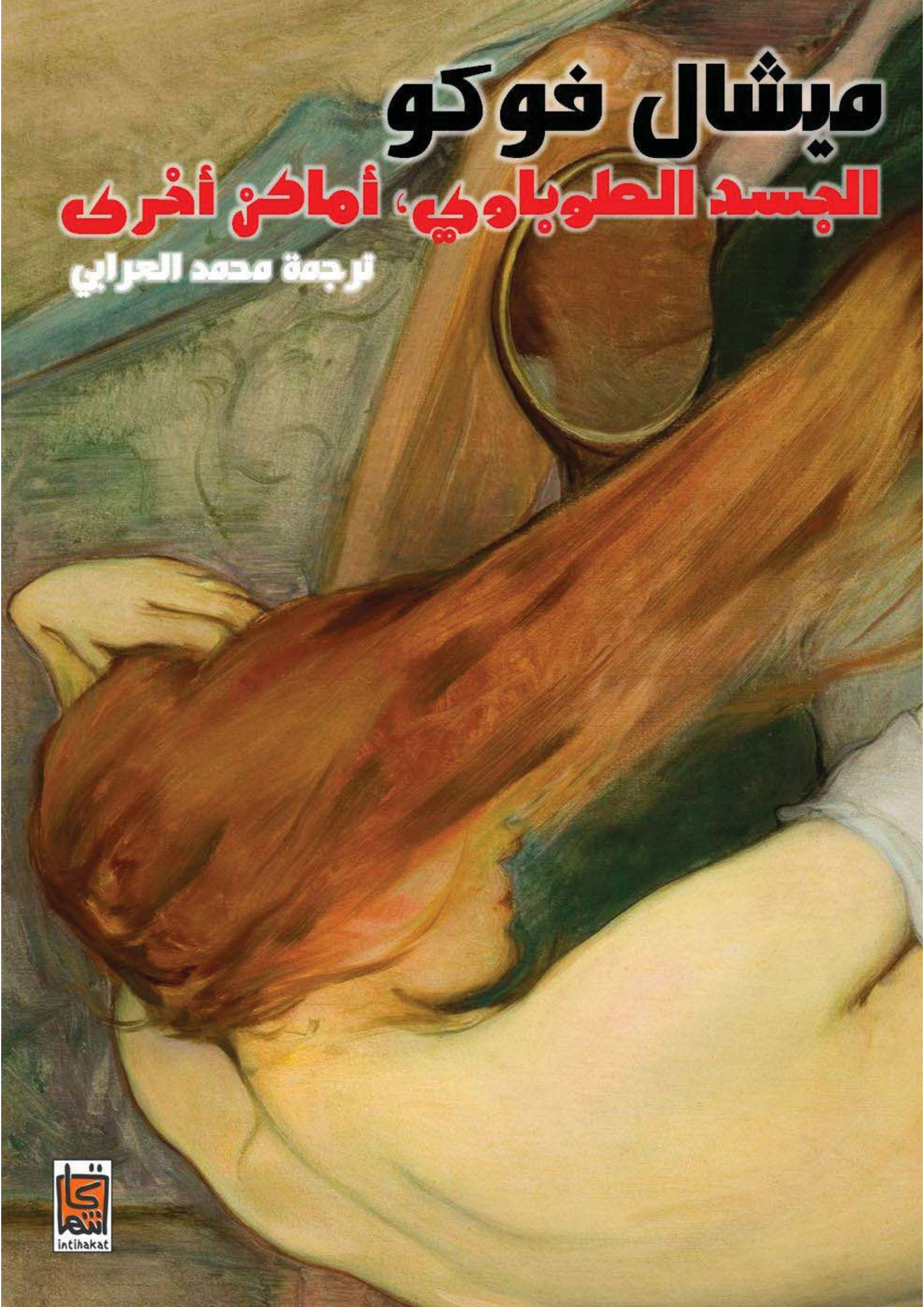
ميشال فوكو
الجسد الطوباوي، أماكن أخرى
ترجمة محمد العرابي
intihakat

الجسد الطوباوي، أماكن أخرى

منشورات "الانتهاكات"

(كتاب ثقافي غير ربحي)

العدد السادس

الكتاب

الجسد الطوباوي، أماكن أخرى

تأليف

ميشيل فوكو

ترجمة

محمد العرابي

الناشر

مدونة جورج باتاي

تصميم الغلاف:

نصر سامي

تصميم الصور الداخلية:

قصي طارق

intihaket@gmail.com

Nomene.blogspot.com

@MohamedNomene

www.facebook.com/bataille7

جميع الحقوق محفوظة للمترجم

الجسد الطوباوي، أماكن أخرى

ميشيل فوكو

ترجمة
محمد العرابي

المحتويات

06 تقديم بقلم فيليب سابو

22 الجسد الطوباوي

31 أماكن أخرى

لغة، مجتمع، جسد
طوباويات، وأماكن أخرى عند ميشيل فوكو

فليب سابو
جامعة ليل – شمال فرنسا

نريد، في ما يلي من قول، مساءلة المبحث الفوكوي عن الفضاء، مع التركيز بخاصة على أرشيف نادر يمكننا من خلاله عرض مجموعة من الجوانب الحاسمة انطلاقاً منه. هذا الأرشيف يتألف من باقة من محاضرتين إذاعيتين صوتيتين من 25 دقيقة لكل واحدة منهما، أذيعتا يومي 7 و21 دجنبر 1966 على أمواج إذاعة فرنسا الثقافية في إطار برنامج "ثقافة فرنسية" لروبير فاليت. هاتان المحاضرتان الإذاعيتان لمشيل فوكو جاءتا ضمن سلسلة من البرامج المخصصة لموضوع "اليوطوبيا والأدب". آنذاك كانت إحداهما تحمل عنوان: اليوطوبيات الحقيقية أو "أماكن وأماكن أخرى"، والثانية كانت تحت عنوان: "جسد طوباوي"، وتم تقديمهما باعتبارهما «دراستين أدبيتين لميشيل فوكو». وقد تمت أرشفتُهما من طرف المعهد الوطني للسمعي البصري، وجمعُهما في 2004 في قرص مدمج ضمن سلسلة "ذاكرة حية"،يحمل التصنيف النوعيّ عنوان: *يوطوبيات وأماكن أخرى (Utopies et hétérotopies)*[1].

هاتان المحاضرتان تثيران الانتباه بعناوينهما العديدة. تشكلان بداية، وثيقة أصلية نسبياً ضمن عمل فوكو. ومع هذا القرص المدمج ندخل بالفعل إلى أرشيف مسموع لا إلى نص مكتوب، كما هو الحال في الغالب مع "*الأقوال*" لفوكو [بدءاً بالمحاضرات –المنشورة تحت قاعدة الملاحظات

1. نشرت المحاضرتان الإذاعيتان في يونيو 2009، عن دار النشر خطوط في كتيب معنون بـ: مشيل فوكو، الجسد الطوباوي، يليه أماكن أخرى، [بغلاف أخير لدانيال دفير]

المخطوطة لفوكو، ولكن أيضاً الحوارات، المنشورة في المجلات والنشرات في حياة فوكو أو المجمعة بعد وفاته في النشرات الشهيرة: *أقوال وكتابات، دار غاليمار*]. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن نسجل، أنه إذا كان فوكو قد حظيَ في مناسبات عديدة بفرصة الحديث للإذاعة، فقد كان ذلك في أغلب الأحيان للمشاركة في حوارت أو نقاشات كانت تثيرها كتبه المنشورة أو شخصيته كمفكر يحظى بحضور إعلامي. والحاصل أن هاتين المحاضرتين الإذاعيتين لسنة 1966، المعاصرتين للطبعة الأولى من: *"الكلمات والأشياء"*، وللعاصفة الكلامية التي أثارتها على الفور "حفريات العلوم الإنسانية"، تبدوان غريبتين نسبياً على النقاشات الحادة حول مقولة "موت الإنسان". وبعيداً عن تقديم تفسيرات لعمل أركيولوجيا المعرفة الغربي الذي كان يتواصل في نفس اللحظة، فقد كانت المحاضرتان تقذفاننا على الأصح صوب مسرح آخر، على أرضية أخرى، مانحتين بذلك الإمكانية لمعالجة المسألة الجوهرية للفضاء بطريقة مختلفة عن علاقته الأحادية مع اللغة والمعرفة.

إلا أنه مع ذلك، فهذه الملاحظة الأولية المتعلقة بطبيعة الأرشيف الذي سيكون موضع تساؤل في ما سيأتي من مبحثنا تَبقى ناقصةً. وبالفعل، ينبغي أيضا التدقيق أن أولى المحاضرتين المذاعتين في دجنبر (ديسمبر) 1966، أي "أماكن أخرى" (*hétérotopies*)، ستعرف مصيراً فريداً من نوعه، وهو ما أبرز معالمه دانيال دوفير في تقديمه لقرص مدمج ثان. وبمبادرة من إيونيل شاين الذي صادف أنه كان وراء جهازه للراديو يستمع للمحاضرة الأولى لفوكو، وُجِّهت الدعوة لهذا الأخير لأن يقدم من جديد محاضرته، في نسخة معدلة تعديلاً طفيفاً، أمام حلقة الدراسات المعمارية لباريس في مارس 1967. هذه المحاضرة الجديدة المعنونة بـ: "فضاءات أخرى"، لم يرخِّص بنشرها إلا في 1984، بمناسبة معرض برلين الحامل لشعار: *فكرة، سيرورة وحصيلة* في متحف "Martin-Gropius-Bau" [متحف برلين للفنون الزخرفية]. هذا النص ظهر بعد ثمانية عشر عاماً أول بث إذاعي له، في مجلة: *فن العمارة. تيارات. استمرارية*. والواقع أن هذه الاستعادة للمحاضرة حول *الأماكن الأخرى*، الملقاة لمرة ثانية أمام الجمهور المتخصص للمهندسين المعماريين والمهندسين في تنظيم المدن [المحترفين في الفضاء المديني]، من شأنها أن تعطي النصَّ حياةً ثانية، في فرنسا ثم لاحقاً في الخارج [في ألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتحدة]، وستُفضي إلى خلق كرسي *علم الأماكن الأخرى* (L'hétérotopologie) في جامعة كليفورنيا، لوس أنجلس، بتحريض من عالم الجغرافيا الحضرية إدوارد صويا. وهو ما شكل صيغة لأن يُحمل الاقتراح الطوباوي لفوكو خلال محاضرته الأولى بكثير [بإفراط؟] من الجدية: «أحلم بعِلم -وأشدِّد على عِلم- ستكون هذه

الفضاءاتُ المختلفةُ موضوعاً له، هذه *الأماكنُ الأخرى*، هذه النزاعاتُ الأسطوريةُ والحقيقيةُ حول الفضاء الذي نحيَى فيه». هذا الاقتراح اقتضى مع ذلك بعض التصويب أو في الأدنى تخفيف طموحه في النسخة المكتوبة لنفس المحاضرة بعد أسابيع أمام حلقة الدراسات المعمارية- كما لو أن فوكو توجَّس في آن من القيمة الزائدة التي قد يحمِّلها مهندسو فن العمارة ومهندسو المدينة لتأمُّله التجريبي على شكل دراسة حرة حول موضوع *الأماكن الأخرى*: «يمكننا أن نفترض، *أنا لم أقل "علم"، لأنها كلمة تستعمل اليوم كثيراً في غير محلها*، ولكنها نوع من الوصف المنظَّم» يتعلق الأمر بالفعل بتحليل بنيوي –*للأماكن الأخرى* و«هذا الوصف يمكن أن ندعوه *علم الأماكن الأخرى*».

وهكذا وجدت محاضرة "*الأماكن الأخرى*" نفسها تتعرض للاستغلال بل وللإفراط في الاستغلال من لدن أولئك الذين أخذوا علماً بها منذ نهاية الستينيات وطيلة سنوات السبعينيات والثمانينيات والذين جعلوا من مبدأ *المكان الآخر* نفسه ربما أكبر من آلية لتحليل الفضاء المديني، بأن جعلوا منه مفتاحاً كونياً لتأويل فضاءات وسلوكات مدينية معاصرة [فنية، واحتفالية، وجنسية، وأحياناً ثلاثتهم مجتمعين!]. والثراء المذهل لهذه المحاضرة لم يقتصر مفعوله فقط بالمقابل على إدراجه ضمن العمل المكتوب لفوكو. بل ساهم بطريقة غير مباشرة، في إغراق المحاضرة الأخرى لدجنبر 1966 في النسيان، أي محاضرة "الجسد الطوباوي"، التي غابت أيضاً عن طبعات: "*أقوال وكتابات*"، فيما كان هذان المبحثان يشكلان بوضوح في ذهن فوكو، زمن إذاعتهما، مصنَّفاً من قسمين إذاعيين حول الموضوعة العامة لليوطوبيا. والجوهري في أطروحتنا يقتضي منا في المقابل أن نشدِّد على الوحدة الإشكالية لهذا المصنف من قسمين، وتوضيح النزوع الذي يحركه. سنوضح بخاصة أن هذا النزوع، عند فوكو، لا يذهب فقط من فكر للفضاء المضاعف نحو فضاء للداخل وفضاء للخارج، بل أيضاً من تمفصل حاسم بين يوطوبيا *ومكان آخر* يشتغل بطريقة مفارقة على مستويات المعرفة، والاجتماعي، والجسد.

الفضاء الآخر للخيال

هذا التقاطع بين اليوطوبيا *والمكان الآخر* طُرح طرحاً أولياً في تقديم كتاب: "*الكلمات والأشياء*" (1966)، بارتباط على الخصوص مع سؤال حول تقاطع خطوط الفضاء مع اللغة في التكوين المنطقي لنظام معين للأشياء. وينبغي أن ننطلق من هذا الظهور الأولي لثنائية يوطوبيا-مكان آخر، بالمعنى الذي يجعلها تشكل فعلياً نقطة الانطلاق لتفكير ينصبُّ على التكوين والتغييرات التي تطرأ

على فضاء طوباوي والذي عليه أن يتطور بعد ذلك بمعزل عن *الكلمات والأشياء*، في هذا الهامش من العمل المفتوح بصوت فوكو في هذين المحاضرتين الإذاعيتين لسنة 1966.

لقد ظهر إذن مبدأ *المكان الآخر* بدايةً في كتابة فوكو ليشير إلى الطريقة التي تتمكن من خلالها اللغة، تحت شروط معينة، من تمزيق ومن خلخلة الفضاء المتجانس والمنظَّم للخطاب. وذلك ما حدث مع الحالة الشهيرة "للموسوعة الصينية" التي يوردها بورخيس، والتي بموجبها «تنقسم الحيوانات إلى: أ- في ملكية الإمبراطور. ب- محنَّطة. ج- مدجَّنة. د- خنازيرُ رضيعة. هـ- حوريات. و- خرافية. ز- كلاب ضالة. ح- متضمَّنة في التصنيف الحالي. ط- التي تضطرب كالمجانين. ي- تعيش في قطعان لا تحصى. ك- مرسومة بريشة دقيقة جداً من وبر الجمل. ل- إلى آخره . م- التي كسرت الجرة للتو. ن- التي تبدو ذباباً من بعيد»[2]. والسؤال بأي شيء يكوِّن خيالٌ معيَّن "*مكاناً آخر*"؟ وعلى الخصوص ما الرهانات المستترة لهذا المبدأ غير المستعمل [الذي يتعرض بذلك لتحويل طريف من المجال الطبِّي إلى المجال الأدبي[3]]؟ موسوعة بورخيس تقترح نوعاً من التصنيف المتعلق بعلم الحيوان، الذي، فيما هو يتقيد ظاهرياً بالقواعد التي يخضع لها كل مشروع تصنيفي [من تعاقبية –ومن ترقيم أبجدي –ومن شمولية – لإحصاء كل فصيلة]، يدمِّر مع ذلك ضمنياً الوظيفة التنظيمية ويؤدي أكثر من ذلك إلى حذف جذري لنظام الأشياء. وهذا الحذف يكتمل في الواقع حينما يقوم التصنيف الموسوعي بتعيين طبقة الحيوانات «المتضمَّنة في التصنيف الحالي»، كأحد عناصره المركزية. هذا الانقلاب المناقض لعلم قوانين التصنيف البورخيسي حول نفسه يؤدي إلى انهيار النظام الذي كان يهدف مع ذلك بوضوح إلى إقامته. بإدراج هذه السلسلة ذاتها في السلسلة الأبجدية للحيوانات، تلغي الموسوعة نفسها كتحريف ساخر، وتصبح في النهاية صعبة التصور: لأنه، كما يشدد على ذلك فوكو، «لن نتمكن أبداً من تحديد علاقة محتوىً بحاويات ثابتة بين كل واحدة من هذه المجموعات وتلك التي تجمعها كلها» [*الكلمات والأشياء*، ص 8].إن الأشياء أو الكائنات المعدودة في موسوعة كهذه لهي في آن مرتبة بحسب مبدأ تصنيفها إلى طبقات محدَّدة، ومَقصية من كل نظام نهائي بواسطة اللعب المرآوي للتضمين الذاتي الذي «يدمر حرف العطف "*و*" *(et)* في التِّعداد حين يصيب بالاستحالة حرف

2- مشيل فوكو: الكلمات والأشياء، باريس، غاليمار. "مكتبة العلوم الإنسانية"، 1966 ، ص 7.

3- المكان الآخر (hétérotopie)، هو بداية مفهوم خاص بالتشريح الطبي الباطني يدل على وجود عضو أو نسيج في موضع لا يفترض في العادة أن يتواجد فيه. نتحدث بهذا المعنى عن «مكان آخر عُقَدي وراثي»، أو عن «مكان آخر جنيني»، أو أيضا عن «مكان آخر للمادة الرمادية».

الجر *إلى "en"* التي تنقسم إليها الأشياء المعدودة» (الكلمات.. ص 9). بعد التفكير، فهذه الاستحالة لا تعيّن إذن كفايةً الحيوانات المعدودة في ذاتها، والتي تمت إحاطتها بعمليات تجميع، والتي تكشف، عند أخذ كل واحدة منها على حدة، عن القابل للتمثيل، لكنها تعيّن القدرة على أن تمثِّلها جميعها *في سلسلة*، وإعطاء محتوى للواو (et) الذي يفترض فيه الربط بين مجموع هذه الحيوانات المعدودة وإقامة النظام الذي تحتاج إليه المعرفة لتعلن عن الروابط الحقيقية بين الأشياء:

«إن ما هو مستحيل، ليس تقارب الأشياء، وإنما الموقع نفسه حيث يمكنها أن تتقارب فيه [...] فبورخيس لم يضف أي صورة إلى نسيج المستحيل؛ [...] إنه يتجنب فقط أكثر الضرورات خفاء ولكن أكثرها إلحاحاً، ويُقصي الموقعَ، الأرضَ الخرساء حيث يمكن للكائنات أن تتجاور فيما بينها. اختفاء موسوم أو على الأصح محدَّد بسخرية بواسطة السلسلة الهجائية لأبجديتنا والتي يفترض فيها أن تضطلع بدور الخط الموجِّه [الوحيد المرئي] لتعدادات موسوعة صينية... إن ما تمَّ استبعاده، بكلمة، هو "طاولة العمليات" الشهيرة؛ وبرَدِّي لجزء يسير من الدَّيْن الذي كان رايمون روسيل دائماً حقيقاً به، أستعمل هذه الكلمة "طاولة" بمعنيين متراكبين: طاولة مطلية بالنيكل، مطاطية، مغطاة بالبياض، تلمع تحت شمس زجاجية تلتهم الظلال، -ها هنا حيث تَلتقي للحظة، وللأبد ربما، المِظلَّةُ آلةَ الخياطة؛ و، لوحة تسمح للفكر بأن يجري بين الكائنات عملية تنظيم، وتقسيمها إلى فئات، وتجميعاً اسمياً تُعيَّن من خلاله تشابهاتها واختلافاتها؛ - ها هنا حيث تتقاطع، منذ الأزمنة السحيقة، اللغة مع الفضاء.[الكلمات... ص 8]

فصِنافة بورخيس، لا تقيم أي "مكان مشترك" بين الكائنات التي تجمّع، بإمكانه أن يثبت العلاقة بين العلامات وما تشير إليه، وتلائم أحدهما مع المرئي والآخر مع المنطوق. إنها تعتمد كثيراً بالأحرى على هذا الفراغ الذي أدخله الكاتب فيها والذي يفكك بداهة اللوحة الموسوعية للهويات وللاختلافات الذي بدأ يُقِيمها أمامنا. إن "المكان الآخر" يعين إذن على نحو ما ظهر الخطاب، الفضاء الآخر للخيال، وهو فضاء فارغ أو على الأصح لبداهة التمثيل ولنظام الأشياء، محرَّف بسخرية وفي الأخير ممزَّق إلى «أجزاء لعدد أكبر من الأنظمة الممكنة»(الكلمات...ص 9)، وهو نظام غير قابل للتنظيم مادام أنه لا يمكن نسبته إلى أي «مكان مشترك».

نفهم إذن أن الانحراف الساخر للنظام الذي أخرجه مسرحياً "المكان الآخر" لبورخيس قام قبل كل شيء كدليل على عبث الضرورة القصوى للنظام، الذي وحده يسمح بإقامة التقاطع بين الفضاء واللغة، وجعل الكلمات والأشياء «تبقى مجتمعة» [جنباً إلى جنب وإحداها أمام الأخرى](المرجع السابق). نحن بإزاء وظيفة وقيمة "نحو- تصنيفيين" (syn-taxiques) للفكر الذي يُوقع الصِنافة المتناقضة، والمُبهجة لبورخيس في أزمة.

لن نشدد هنا على القيمة التنظيمية لهذا الانعطاف التمهيدي بواسطة المكان الآخر البورخيسي الذي يضيء في اتجاه معين الأطروحة العامة لـ "كلمات والأشياء" وبالخصوص الوظيفة الاستراتيجية للاعتراض الذي يعزوه فوكو للأدب في تكوين وتحويل المعرفة. وسنكتفي بالتشديد على الطريقة التي من خلالها هذا التحديد الخاص للمكان الآخر يقود فوكو إلى تمييزه عن الطوباوية:

> «إن اليوطوبيات تواسي: ذلك أنها إذا كانت لا تملك مكاناً حقيقياً، فإنها تزدهر مع ذلك في مكان ساحر وناعم؛ وتفتح مدنا بشوارعَ عريضة، وحدائق حافلة بالمغروسات، وبلدانا سهلة التضاريس، حتى ولو كان دخولها خرافياً. بينما "الأمكنة الأخرى" تُقلِقُ، بدون شك لأنها تلغِّم اللغةَ في الخفاء، لأنها تحول دون تسمية هذا وذاك، ولأنها تحطِّم الأسماء العامة أو تشوِّشها، ولأنها تخرِّب مسبقاً "النحو"[...] ولهذا السبب تسمح اليوطوبيات بالحكايات وبالخطابات: إنها [أي اليوطوبيات] توجد في الخط المستقيم للغة، في البعد الأصلي للحكاية (*fabula*)؛ فيما "الأماكنُ الأخرى" [كما نجدها بكثرة عند بورخيس] تجفِّف الخطاب، توقف الكلمات عند حدودها، تعارض،جذرياً كل إمكانية للنحو؛ إنها تُطلق الأساطير وتصيب بالعقم غنائية الجُمل.[الكلمات...ص 9-10]

إن اللاواقعية الأساسية لليوطوبيات توجد نوعاً ما موازنة من خلال تسجيلها في نظام الخطاب، الذي يوفِّر لها نوعاً من الواقعية، واقعية "خرافية" تحديداً. اليوطوبيا لا وجود لها [في مكان ما، في مكان محدد وأكثر واقعية]، لذلك علينا أن نخلقها –وأن نمنحها اللغةَ باعتبارها كذلك موقعاً مفضَّلاً، وإذن أن نحكيها، وأن نجعل هذا المكان غير الموجود عبارة عن كلمات. وتقلب الأماكن الأخرى هذه الوضعية اليوطوبية رأساً على عقب بالمعنى الذي يجعلها تمثِّل في الأدنى نظاماً آخر على أن تمثل الآخر الخاص بالنظام – بل: واختفاء النظام نفسه داخل لغة ليست هي هذا المكان

المشترك الذي انطلاقاً منه يمكن التفكير في العلاقات بين الأشياء [بين هذا و ذاك]، بل والتباعد الخالص للكلمات المفكَّكة الذي تنتهي بأن تغرق فيه حقيقة الأشياء، أو إمكانية وجود المعنى.

يبقى أنه رغم هذا التمييز، في *"الكلمات والأشياء"*، فإن اليوطوبيات والأماكن الأخرى تعيّن أساساً طرائق متمايزة في الارتباط بتجربة اللغة، سواء أكانت هذه على شكل نظام للخطاب أو اعتراض عليه على شكل المكان الآخر الأدبي. وإذن، عندما اقترح فوكو، في نفس السنة، أن يشتغل ثانية على الموضوعات المقترنة لليوطوبيا والمكان الآخر في إطار البرنامج المكرَّس لـ "اليوطوبيا والأدب"، فقد كان جلياً أنه يضع تفكيره على صعيد آخر مختلف تماماً. وبالفعل، فبالانتقال من الكتاب [*الكلمات والأشياء*] إلى المحاضرتين يحدث انتقال هائل يعيد بشكل كامل توجيه التحليل والمعنى نفسه للعلاقة بين يوطوبيا ومكان آخر. وبشكل معين، فإن الفضاء يستقل ذاتياً بنفسه في علاقته باللغة ويلتحق بالبعد العملي للتجربة المعيشة، الفردية والاجتماعية: والمسألة لم تعُدْ تتعلق بالأنماط المختلفة لكينونة اللغة [مع الأخذ بالاعتبار، في الأفق، التقابل بين "الخطاب"و"الأدب"]، وإنما مسألة أنماط كينونات الفضاء المحيط، والتكوين البنيوي للمواقع المختلفة والمحصورة بصرامة في المكان، وإذن تتعلق بأنماط مختلفة للكينونة في الفضاء أو بتمثيل نفسها في هذا الفضاء المعيش، أكان ذلك متعلقاً بالفضاء الاجتماعي وبتوزيعه التراتبي أو أيضاً بالفضاء الحميمي للجسد، هذا «الجزء الصغير من الفضاء الذي بواسطته، بالمعنى الحرفي، أكوّن جسداً». إنه انطلاقاً من هذه المراجعة العميقة لمفهوم الفضاء ولحقله الإجرائي، أمكن لفوكو أن يعلن عن مبادئ ما أسماه حينها علم الأماكن الأخرى (L'hétérotopologie) [الذي اتخذ مظهرَ انتربولوجيا للفضاء الاجتماعي] مثلما يعلن عن الشروط لإعادة تملك البعد الطوباوي للجسد الخاص [في إطار تأمله المدهش حول "الجسد الطوباوي"].

نماذج من « اليوطوبيات الحقيقية »

في محاضرته الأولى شهر دجنبر 1966، يعيّن مفهوم المكان الآخر (hétérotopie) بعض الأنواع من الأماكن الواقعة في الفضاء المتغاير نوعياً عن المعيش الفردي والاجتماعي:

> «نحن لا نعيشُ في مكانٍ محايِد وأبيض؛ لا نعيشُ، ولا نموتُ، ولا نحبُّ داخل مستطيلِ صفحةٍ من الورق. نحن نعيشُ، ونموتُ، ونحبُّ في فضاء مقسَّم إلى خانات، مُقَطَّع، وملوَّن، بمناطقَ منيرةٍ وأخرى قاتمةٍ، باختلافات في المستوى، بدرجاتِ سلَّم، بِحُفر، بمرتفعاتٍ، بمناطقَ صلبةٍ وأخرى هشَّة، قابلةٍ للاختراق، ومُنْفِذةٍ للسوائل.»

إنه داخل هذا الإطار العام للتجربة المعيشة حيث يغدو بالإمكان تصوُّر التمايز، البنيوي والوظيفي، لبعض الأماكن التي تحظى بالخاصية المتناقضة لأن تكون في آن «متمايزة مطلقاً» عن الأماكن الأخرى [تلك التي نعيش فيها عادة] وفي علاقة مع هذه الأماكن الأخرى –مادام أن الأمر يتعلق ب «الأماكنِ التي تتعارض مع كل ما عداها، والتي تكون موجَّهة بشكل ما لمحوها، ولإبطال مفعولها أو لتطهيرها». إن الأماكن الأخرى تعيّن إذن «الفضاءات – المضادة»، للمواقع الكائنة في الفضاء العام لتجربتنا، المتأثِّرة إذن بجانب من الواقع المادي، لكنها تحفر أيضاً بداهة الفضاء المعيش وصولاً إلى حد المنازعة في استعمالنا اليومي له. في بداية محاضرته، يضرب فوكو مثالاً لذلك بسرير الوالدين الذي يحوّله الأطفال إلى مكان آخر للعبهم حينما يجعلون منه شيئا آخر لا علاقة له بالسرير: يصبح محيطاً، «ما دمنا نسبَح بين أغطيته»، وسماءً «ما دمنا نستطيع أن نهتزَّ فوق نوابضه»، وغابةً «ما دمنا نَختبئُ فيه»، أو أيضاً ليلاً «ما دمنا نغْدو أشباحاً بين أغطيته». إن المكان الآخر ينشأ إذن في البداية من نوع من الاستعمال للفضاء المعيش، ولكنه يعود ليستثمر فيه التمايز ليقسِّمه إلى طبقات وظيفية متعارضة وتختلف إحداها عن الأخرى: «أحد قوانين المكان الآخر تقريبُه إلى مكان حقيقي بين كثير من الفضاءات، التي تكون في العادة، بل بالضرورة متعارضة»[4]. إنه يكشف بهذا المعنى عن تعددية الأبعاد في الفضاء المعيش، التي تستخفُّ بالتقسيمات المصطنعة المُبينة للتمثيل العادي للعالم.

هذه الخواصّ البنيوية تمكِّن من تمييز الأماكن الأخرى من اليوطوبيات، وإن كان هذا التمييز، كما سنرى لاحقاً، يكتنفه نوع من الالتباس. وتحيل اليوطوبيات بالفعل على أماكنَ بدون أماكن تقوم بمضاعفة الفضاء الحقيقي للمجتمع في المتخيَّل بقصد تحويله إلى فضاء نموذجي، وأسطوري. إن الفضاء الاجتماعي الطوباوي يتم ربطه على هذا النحو بالفضاء الاجتماعي الحقيقي بمقتضى «علاقة تماثل مباشر أو مقلوب»[5] لا تجعل من اللاحقيقي آخر الحقيقي بل امتداداً له والحلم بكماله الخاص. والحال أن الأماكن الأخرى التي تشغل بال فوكو في هذه المحاضرة هي من طبيعة أخرى. إنها متجذرة في الواقع، في الفضاء الاجتماعي: إنها إذن بالأحرى «أماكنُ واقعية، أماكنُ فعلية، أماكنُ تمَّ إظهارها في مؤسسة المجتمع نفسها، والتي تشكِّل نوعا من مواقع – نقيضة، نوعا من اليوطوبيات الفعلية المتحقِّقة والتي من خلالها تكون المواقع

[4]- كل الاستشهادات مأخوذة من المحاضرة الأولى الأماكن الأخرى لفوكو، وفي حالة العكس يتم التنويه إلى ذلك. (م. المترجم)

[5]- فوكو: الأقوال والكتابات، غاليمار، المجلد 4، ص 755.

الأخرى، كل المواقع الواقعية الأخرى التي يمكن أن نعثر عليها داخل الثقافة، تكون في آن ممثَّلةً، متنازعٌ بشأنها ويمكن قلبها"(*أقوال وكتابات*، نفس الصفحة]. تتضح لنا العلاقة المضطربة التي تقيمها هذه الأماكن الأخرى مع اليوطوبيا. فمن جهة، تتعارض الأماكن الأخرى تعارضاً كبيراً مع اليوطوبيات بالمعنى الذي تعيّن فيه نمطاً من المواقع المحصورة، التي يمكن "موقعتها" في الفضاء [تلك التي يمكن أن نزورها راجلين، أو على دراجة، أو على السيارة أو القطار، وليس فقط في الخيال]. فبينما تشكل أو تعيّن اليوطوبيات مواقعَ بدون مكان فعلي، فإن الأماكن الأخرى (hétérotopies) تشكِّل أو تعيّن أمكنة حقيقية تكون بمثابة مواقع – نقيضة. لكن من جهة أخرى، يسمح فوكو أن نفهم من كلامه أن الأماكن الأخرى تغرق في الخيال الواقع الذي توجد في إطاره، بالمعنى الذي يجعلها بالضبط تشكل علاقة منزاحة ومشوشة لكل الأماكن الأخرى المنتمية للفضاء المعيش والممكن اجتيازه. لنسجل أن وظيفة التشويش هذه الخاصة بالمواقع - النقيضة للأماكن الأخرى لا تتعلق أبداً، كما في "الكلمات والأشياء"، بالفضاء المنظَّم للخطاب، ولا بطريقة ربط أو فكّ الكلمات والأشياء، أو بإحداث أدنى قلق في توازنهما، ولكنها تتعلق بشكل كبير بـ«الفضاء الذي نعيش فيه»، هذا المجموع من الأماكن حيث تمارس الحياة اليومية. يبقى علينا في المقابل أن نفهم علام يرتكز هذا الاعتراض على الفضاء المعيش اليومي، بمعنى لماذا يثير هذا الفضاء نفسه "يوطوبيات واقعية" تقوم بتشويهه وتضاعفه في ذاته؟

لكي يعيّن، من بين الأماكن الاجتماعية، تلك المنتمية إلى الأماكن الأخرى، يعلن فوكو عدداً من المبادئ [ستة في المجموع] التي تشكِّل عدداً من المعايير التعريفية المساوية لها، ترسِّخ فهمنا لمفهوم المكان الآخر ومحددة امتداده الملموس [لكل مبدأ معلن عنه تساق مجموعة من الأمثلة]. من بين هذه المبادئ، ما يضيء أكثر بوجه خاص بنية فضاءات الأماكن الأخرى. وعلى الخصوص [وذلك هو المبدأ الخامس المعلن من طرف فوكو]، «الأماكن الأخرى تمتلك دائماً نظاماً للانفتاح وللانغلاق يعزلها في العلاقة مع الفضاء المحيط». إننا نعثر هنا على التناقض المشار إليه سابقاً: كون المكان الآخر يقع في آن في قلب العالم المعيش، في الفضاء الاجتماعي، وعلى هامش هذا العالم وهذا الفضاء. وعلى هذا النحو يمكنه أن يمثل خارج الداخل، عندما يحيل على أماكن محجوبة عن الرؤية وعن الدخول الحصري أو القسري إليها [حمامات المسلمين، السجون، الملاجئ، المقابر]؛ كما يمكنه أيضاً أن يمثِّل داخل الخارج، كما في حالة الغرف الملتصقة ببعض المنازل في أمريكا الجنوبية المفتوحة على الخارج، المسموح بولوجها في وجه عابري السبيل، لكنها لا تفضي إلى داخل هذه المنازل.

هذه التحليلات تمكِّن من إضاءة بنية الأماكن الأخرى المحوَّلة على هذا النحو في محيطها الفضائي والاجتماعي. لكن مبادئ أخرى تضيء على الخصوص وظائف هذه الأماكن. هكذا يقترح فوكو التمييز بين الأماكن الأخرى للأزمة [المماثلة لـ «أماكن مفضَّلة أو مقدَّسة[...] مخصصة للأفراد في حالة أزمة بيولوجية»: مثل ثانويات البنين، ثكنات عسكرية، سفر شهر العسل، إلخ...] وبين الأماكن الأخرى للانحراف [المماثلة بالأصح لهذه الأماكن «التي يوفِّرها المجتمعُ على هوامشه، وفي الشواطئ الفارغة التي تُحيط به (والتي يتمُّ على الأصح) تخصيصها للأفراد الذي يَجنَح سلوكُهم بالقياس إلى الحالة السوية أو المعيار المطلوب»: كمنازل الراحة، والملاجئ، والسجون]. يستند هذا التمييز الوظيفي والحالة هذه، إلى العبور التاريخي والثقافي لأسبقية من المعايير البيولوجية [في المجتمعات البدائية] التي تعبِّد الطريق لنمو فردي على حساب أسبقية المعايير المجتمعية [في المجتمعات المعاصرة] التي تحدِّد الشروط لتدبير فارقي للشعوب. يبقى أنه في الحالتين، يتكوَّن المكان الآخر وظيفياً انطلاقاً من تحول للأفراد وللجماعات التي تمرّ به. والمكان الآخر، بالنتيجة، لا ينجُم فقط عن نوع من الاقتطاع في الفضاء المعيش والاجتماعي، إنه يحدِّد، بالمعنى القوي لهذه الكلمة، *تجربةً*، أي المسار الخاص بصيرورة فردية أو جماعية بمقدار تمفصلها مع انتقال طبولوجي. ومن الممكن بهذا الخصوص أن نسجِّل بأن الأماكن الأخرى الموصوفة من طرف فوكو هي على الأرجح أماكن عبور، فضاءات انتقال، للتكوين أو للتعليم، وعبرها تنبني علاقة العالم الاجتماعي وتغتني. والأفضل من ذلك، بعض الأماكن الأخرى، الموجودة في حالة حركة، باعتبارها من وسائل النقل: وتلك هي حالة السفينة والتي لم يتردَّد فوكو في نهاية بحثه الإذاعي أن يجعل منها «المكان الآخر بامتياز». ذلك أن السفينة هي: «قطعةٌ من الفضاء العائم، باعتبارها مكاناً من دون مكان، يستمد حياته من ذاته، ومنغلقاً على ذاته، حراً بمعنى ما، ولكنه منذور حتماً للانهائية البحر...»[6] في نص "فضاءات أخرى"، يشير فوكو أيضاً إلى القطار كمكان آخر، ما دام القطار «شيء ما نعبر من خلاله [...] شيء ما كذلك يمكننا بواسطته أن نعبر من

[6] - هذه الإحالة على السفينة تذكرنا بالسفينة الشراعية للمجانين، «هذا المركب الغريب المترنّح الذي يقطع الأنهار الهادئة لمنطقة الريناني (Rhénanie) والقنوات الفلاماندية» التي وصفها فوكو في بداية كتابه: *تاريخ الجنون*، باريس، منشورات بلُون، 1961، أعيد طبعه غاليمار، 1972، صفحة 18 وما بعدها. إن سفينة المجانين (Narrenschiff) تشكل فعلا مكانا آخر بالمعنى الذي تشكل فيه بالنسبة للمجنون الذي تقله، فضاء برزخيا وملتبسا، مغلقا ومفتوحا في آن، يحظى بـ«وجود حقيقي» (ص 19) ويحمل كل المعاني المتخيلة للعبور وللحد: «إن المجنون لكونه محتجزا في السفينة، التي لا يستطيع أن يهرب منها، ترك أمره للنهر ذي الألف رافد، وللبحر ذي الألف طريق، ولهذا اللايقين الكبير والخارجي بالنسبة للكل. إنه سجين في وسط أكثر الطرق تحررا، وأكثرها انفتاحا: مرتبط بصلابة بلا نهائية ملتقى الطرق»(ص 21).

محطة إلى أخرى، ما دام يمرّ كشيء ما كذلك»[7]. باختصار، وسائل النقل، وكالات الأسفار، والأسفار في حد ذاتها تعتبر أماكن أخرى في المقام الأول بالمعنى الذي يتضمن فيه المكان الآخر، في علاقته بالأماكن الأخرى، شكلاً من التجربة، رمزية أو حقيقية، المرتبطة بتحوُّل يلحق الذات.

وسنفهم بسهولة كيف أن هذا المبدأ الذي يشبه غرفة المهملات، والذي ذكر فوكو مضمونه على شكل "موسوعة" على النمط البورخيسي [وإذن على شكل مكان آخر] عرف نوعاً من الرواج لدي المهندسين المعماريين، والمهندسين المدينيين وغيرهم من علماء الإناسة. إن الحدود المائعة لمفهوم المكان الآخر أدت بالفعل إلى إدراك تعددية الأمكنة التي تشكل فضاءً لـ "الخارج" باعتباره فضاء معيشاً مستمداً من تجربة الذات والمجتمع.[8]

الجسد، بين اليوطوبيا واليوطوبيا النقيضة

المحاضرة الإذاعية الثانية لفوكو تستأنف بجلاء التفكير حول الفضاء ناقلة إياه إلى مستوى آخر مدرجة له في إطار أنساق فلسفية ومفهومية مختلفة جذرياً. ومن محاضرة إلى أخرى ينتج بالفعل نوع من الانزياح المثير، يعدُّ بمثابة انزياح حقيقي للفكر.

فبداية، ينصبُّ الانتباه بوضوح على فضاء "الداخل"، هذا الفضاء النوعي والحساس والذي تعود مزاياه إلى التجربة (أكانت فضائية، أم منظورية، أم خيالية، أم حُلمية) المتعلقة بذات أو وعي، وفي كل الأحوال المتعلقة بهذا الصوت الفريد الذي يتكلم بضمير المتكلم لجسد(ه). هذا الاشتباك بين التحليلات البنيوية للفضاء وللخارج والتحليل الظاهراتي لجسد(ي) مذهل نسبياً، وأكثر إذهالاً خصوصاً وأنه لا يتناسب كثيراً مع الصورة التي تكوَّنت عن فوكو عند قراءة *"الكلمات والأشياء"*، حيث تم وصف التمظهرات الكبرى الغامضة للمعرفة، أي «اللاوعي الإيجابي

---

[7]- فوكو: أقوال وكتابات، مجلد 4، ص 755. وهذا المثال سيأخذه ميشيل دي سيرطو في كتاب: اكتشاف اليومي. المجلد 1، منشورات فنون الفعل، [باريس، UGE، 1980] بالارتكاز على التقاطع بين فضاءات وأمكنة: ويعرف فيه الفضاء بأنه "مكان واقعي" (pratiqué) (ص 208).

[8]- يمكننا أن نميز من وجهة النظر هذه "الأماكن الأخرى" بالمعنى الذي يعطيه إياها فوكو و"اللا-أمكنة" المحددة من طرف مارك أوجي (Marc Augé) في المسمى باسمه [اللا-أمكنة، مقدمة لانتربولوجيا مافوق العصرنة، باريس، منشورات سوي 1992]. وبحسب هذا الأخير فـ "اللا-أمكنة" تعين قبل كل شيء هذه الفضاءات الاجتماعية القابلة للتبادل، والتي يكون الكائن الانساني فيها، بعيدا عن أن يكون مجبرا على ممارسة تجربة على ذاته، يجد نفسه على العكس غارقا في المجهول. ويعطي "أوجي" على الخصوص كأمثلة لهذه اللا-أمكنة، التي لا يمتلكها الإنسان حقيقة والتي تكون علاقته بها في الغالب علاقة سلبية قائمة على الاستهلاك، كوسائل النقل، والسلاسل الفندقية الكبرى، والأسواق الممتازة.

للمعرفة» الخاص بحقبة معينة، بدون علاقة تأسيسية [وهو ما آخذه سارتر على فوكو بقوة] مع ما هو عملي، أو مع الاختيارات والمشاريع الفردية. وقد سبق لمحاضرة "الأماكن الأخرى" أن عادت وبطريقة ما، إلى هذه المقاربة "الأركيولوجية" بوضعها تمفصل الاجتماعي والفضائي في المقام الأول. وقد بيَّن فوكو جيداً كيف يمكن لهذا التمفصل أن يغري بالتجارب الذاتية، ويمكن أن "يفسح المجال" لأشكال من الذاتية الأصيلة [تلك الخاصة بالمسافر- الملاَّح،مثلاً]. يبقى أن الفضاء الخارجي لا يكون في ذاته مختصا بمنظور ذاتي، بضمير "أنا"، بذات متجسدة انطلاقاً منها ينتشر [هذا الفضاء]. ولا تمثل الذات، من الفضاء الخارجي، إلا ما تتركه من أثر؛ وفي هذا الفضاء تصبح الذات مكوَّنةً وليست مكوِّنة. والحال أن المحاضرة الإذاعية الثانية لسنة 1966 تعمِّق بوضوح هذا المنظور بظهورها على هيئة تأمل ظاهراتي حقيقي حول الجسد الخاص كتأسيس لعلاقة أصيلة مع الفضاء المعيش.

هذا الاستطراد الجديد الإذاعي [المهمل في الغالب من طرف دارسي فوكو] اتخذ كموضوع له تحديداً العلاقة بين الجسد، جسد(ي)، واليوطوبيا ويقود إلى ما يمكن تسميته ظاهراتية اليوطوبيا: وهو ليس إذن نوعاً من التحليل التاريخي والثقافي للمعالجات الطوباوية، أو من خلال اليوطوبيا، للجسد، ولكنه بالأصح تفسير لمعنى اليوطوبيا انطلاقاً من الجسد. كما أنه من المهم معرفة كيف يمكن لليوطوبيا أن تولد من الجسد [حتى نتمكّن من معارضة أو محو ذاتيته الثقيلة] وكذلك الكيفية التي تمكِّن الجسد نفسه من أن يشكِّل بؤرة طوباوية، وانطلاقاً منها وصوبها تنتشر الرغبة الطوباوية. إن معنى الطوباوية يجد نفسه إذن أنه تعرض للتعديل داخلاً لجسد: وهذا يجعله في الآن نفسه غير قابل للإدراك من طرف المنطق الأدبي للحكاية (fabula) ومن لدن المنطق الاجتماعي للمواقع وللمواقع – المضادة، أو ربما يجمع هذين المنطقين في بُعد الجسد – حيث يتقاطع من جديد الفضاء واللغة.

حينئذ، ماذا يقول الجسد عن اليوطوبيا؟ وأي معنى سيكون لليوطوبيا حين تصبح منظوراً إليها من زاوية الجسد؟ هذا المعنى يُبنى انطلاقاً من حركة ثلاثية. وللشروع في ذلك شدَّد فوكو على دور الجسد في تحديد فضاء الاستدعاء الموضوعي للذات (Moi)، وفي تحديد مكان بلا عمق لايمكن لل"أنا" فيه إلا أن تطابقني مع نفسي، دون أن يكون لها من خيار إلا أن تكون هنا حيث يوجد جسدي: «أنا لا أستطيع أن أتحرَّك بدونه؛ لا أستطيعُ أنْ أتركَه هناك حيث يُقيم لكي أذهبَ، أنا، بعيداً» إجمالاً، هذه الملاحظات تتعارض مع الدعوة للسفر وللمغامرة التي اختتمت بها المحاضرة السابقة. فإذا كان المكان الآخر للسفينة حاملاً لوعد الهرب، ولحركية بدون قيود،

وبدون قوانين (سفن القراصنة...)، فإن الجسد،«*المكان عديم الرحمة*»، يبدو أنه يعني بالأصح تجسُّد الذات، انحصاره المطلق والمحسوس: إن الذي يحدِّد الذات والذي يحدِّق فيها في المرآة كل صباح، كحضور لا يُقهَر ولا يُطاق: «وجهٌ شاحبٌ، كَتِفان مُقوَّستان، رُؤيةٌ ضبابيةٌ، ولا شعرةٌ واحدةٌ في الرأس، حقّا ليسَ جميلاً»،هذا الجسد، «جسدي»، الذي أنتمي إليه أكثر مما ينتمي هو إليّ [بالمعنى الذي سيكون علي أن أجعل منه جسدي وحدي، بقرار شخصي]، ليس هو في العمق لا مكاناً آخرَ ولا حتى طوباويا: «إنه النقيض لكل طوباوية، أي أنه ما لا يستظل بأي سماء أخرى». وبالنتيجة، ما دام الجسد في ظاهراتيته الأولى، يعطِّل كل جدلية تنتمي للهنا و الهناك، هذه الجدلية لا يمكنها أن تتبلور إلاّ ضد الجسد، في أفق "مسحه" وإنتاج سلسلة من التفاعلات الطوباوية، بل من اليوطوبيات ذات الاستجابات الجديدة: يوطوبيا خرافية لـ"جسد مغاير"، لجسد خرافيٍّ و"لا جسديٍّ" [تحكي عنه حكايات الجنيات التي تخلق بلداناً «تَنتَقِل فيها الأجسادُ بسرعةٍ أكبرَ من الضَّوء،وتُشفَى فيها الجُروح باستعمال عِقَارٍ سِحريّ بسرعة البرْق [...] وقد نسقُطُ فيها من جبلٍ وننهضُ منه أحياءً،[...]وحيث نَظهَرُ فيها حينما نُريد ونَلبَس قبَّعةَ الإخْفاء حينما نَرغَب»]؛ أو أيضاً يوطوبيا شيء آخر غير الجسد، كيوطوبيا ميتافيزيقا الروح – التي تحوّل عجز الجسد إلى قوة للتهرُّب، للخلاص وللخلود:

> «إنَّ الروحَ تعملُ في جسدي بطريقة مُثيرة للدَّهشة. فهي تُقيم بداخله، بكلِّ تأكيدٍ، ولكنَّها تعرِف جيّدا كيف تهربُ منه: تهربُ منه لترى الأشياءَ، من خلال نافذتي عينيّ، تهربُ منه لكي تحلمَ حينما أنامُ، ولكي تستمرَّ في العيش حينما أموتُ.»

مع ذلك، حسب فوكو، فهذه اليوطوبيات الخرافية والميتافزيقية التي تهدف إلى تحاشي الحقيقة المخزية للجسد، تنبثق نفسها من هذا الجسد: إنها تضيء فيه بأثر رجعي تكوينه الداخلي، وتندرج في العلاقة الملتبسة، "العجائبية" التي تقيمها مع ظاهراتيته الخاصة، غير القابلة للاختزال في تجلّيه الموضوعي. وبطريقة معينة، يبين فوكو هنا كيف "تبلغ" اليوطوبيا الجسدَ، أو كيف "يتطوَّب" [أي يصبح طوباويا من ذاته] بأن يتجسَّد، بأن يغدو جسد"ي" – وليس فقط هذا المكان المغلق الذي نحلم بأن نهرب منه، ولكن هذا الجسد الملغِز والحيّ الذي نعرف جيداً بأنه جسدكَ دون أن نملك مع ذلك الإمكانية للقبض على كل أبعاده:

«إنه يمتلكُ في داخله، هو أيضاً، أماكنَ بلا أمكنةٍ، وأماكنَ أكثرَ غوْراً، وأكثر عِناداً أيضاً من الرُّوح، ومن القبْر، ومن سِحْر السَّحرة. فلهُ كهوفُه وخزائنُه، وله رحلاتُه الغامضةُ، وله شواطئُه المشمسَة».

يتموقع فوكو قريباً جداً من ميرلو بونتي حتى أنه يبدو بين الفينة والأخرى يشرحُه: إن الجسد ليس هو المكان المتشاكل والمتجانس الذي تقدمه لنا المعرفة الموضوعية؛ إنه من زاوية التجربة أو الاختبار الذي نجريه عليه، فضاء متعدد الأبعاد، هو في آن قابل للنفاذ وغير منفِذ، مفتوح ومغلَق، مرئيٌّ وغير مرئيٍّ، والذي في كل الأحوال يستحيل استعراضه، أو استنفاد ظاهرته9. هذا الجسد، «الشبح الذي لا يلوح إلا في مرايا، وأيضاً، بشكل مجزأ»، ليس إلا حضوراً متلاشياً، بل ومزعجاً ما دام ينفلت عندما نعتقد بأننا قبضنا عليه، «هذا الظَّهْرُ الذي أحسُّ به مُنْضَغِطاً على مُسْنَد الفِراش على الأريكَة، حينما أكونُ مُمدَّداً فوقها، لكنه (الظهر) لا يُدهِشُني إلا بواسطة خديعة المرآة». إن الجسد، "جسدي"، المتكشِّف لذاته بشكل غير مباشر –وعبر نظرات إجمالية– في الانعكاسات المتتالية لمرآة، يتضمن في ذاته إذن، احتمالية طوباوية، تجعل منه مكاناً للولادة، وتعبيرا أصلياً لكل اليوطوبيات – الأدبية أو الفلسفية. إن جسدي تأسيساً يوجد خارج ذاته.

هذه الاحتمالية الطوباوية التي يجددها الجسد في بعض التجارب أو بعض الممارسات الثقافية [قناع، وشم، تبرُّج، امتلاك] التي تشوِّش الحدود بين المقدَّس والمدنَّس، وبين الأنا والآخر، بين الخارج والداخل، والتي تضع حرفياً الجسد خارج ذاته، تجعله آخر بتحويله إلى «قطعة من الفضاء الخيالي الذي سيدخل في حوار مع عالم الألوهية أو عوالم الآخرين». إنها هذه الاحتمالية الطوباوية، حسب فوكو، وبصيغتها الأكثر جذرية أيضاً، هي التي يجسِّدها الجسد نفسه والتي يقصيها تماماً عن هذا الظهور في الواقع والذي من خلاله تفرض نفسها يومياً علينا. وبالفعل، فاليوطوبيا ليست سلطة تضاف ثانية وتقريباً محتملة للجسد. إنها بالأحرى بُعْدُه التكويني،

9- من وجهة النظر هذه يقع "الجسد الطوباوي" الذي يعالجه فوكو هنا على النقيض من الجسد الموظف من طرف الرؤية واللغة الطبية التي كانت موضوع كتاب فوكو "*ميلاد العيادة*" (1963). إنه يشبه من هذه الزاوية بشكل غير متوقع أطروحة ميرلو بونتي في كتابه: *ظاهراتية الرؤية*، التي تشدد كذلك على عدم قابلية اختزال الجسد الخاص في التناول العلمي في بعده الموضوعي: «سنرى بأن الجسد الخاص يحتجب، في العلم نفسه، عن المعالجة التي نريد أن نفرضها عليه. وبما أن مكونات الجسد الموضوعي لا تشكل إلا لحظة من تكوين الموضوع، فإن الجسد إذ ينسحب من العالم الموضوعي، يجتذب الخيوط القصدية التي تربطه بمحيطه وبالنهاية يكشف لنا الذات الرائية كالعالم المرئي» [باريس، غاليمار، 1945؛ أعيد نشره ، ص: 86 في منشورات Tel]

وحقيقته المتناقضة، هي في آن غير القابلة للتعيين والمنبع الأصلي لكل العلامات (repères) [المكانية والزمنية] ولكل أنشطة الذات:

«إنَّ الجسدَ يشكِّل نقطةَ صِفْرِ العالَم، وفِي النُّقطةِ التي تتقاطَع عندها الطُّرُق والفضاءاتُ فإنَّ الجسدَ لا يكونُ في أيِّ مكان: إنَّه في قلْبِ العالَم فِي هذه النَّواة الطُّوباوية التي انطلاقاً منها أحلمُ، أتكلَّمُ، أتقدَّمُ، أتخيَّلُ، وأتصوَّرُ الأشياءَ فِي أماكنِها وأنْفيها أيضاً اعتماداً على القوَّة اللامحدودة لليوطوبيات التي أتخيَّلُها. إنَّ جسدي لَهُوَ مثلُ مدينةِ الشَّمس، ليسَ لهُ مكانٌ، لكنْ مِن داخِلِه تَخرجُ وتشعُّ كلُّ الأمكنَة الممكنَة، حقيقيةً أو خياليَّة.»

لكن حينئذ، يستحيل علينا على نحو ما أن نعيش التجربة المباشرة لهذا الجسد الطوباوي، لهذه الطوباوية المتجسدة، ما دام هذا الجسد لا يوجد حقيقة، ويختلف عن هذا الجسد الأمبريقي، المتموقع مكانياً، والذي ألحظه في المرآة كل صباح، ولكنه يعين بالأحرى جسداً "متعالياً" – وفي أضعف الحالات جسداً مماثلاً لذلك الذي ينفلت مني دائماً ويقذفني خارج ذاتي.

نرى إذن، في نهاية تأمل فوكو، ظهور توتر، بل تناقض بين، من جهة، جسد طوباوي، أو، الأفضل، جسد-يوطوبيا «يُصعِّد» فضاء الجسد الخاص في لامكان اليوطوبيا، ومن جهة أخرى، جسد"ي"، كوحدة معيشة من الاحتماليات الطوباوية. هذا التوتر يجد أخيراً حلَّه في نوعين من التجارب الجوهرية التي تختزل «اليوطوبيا العميقة وذات السيادة» للجسد في الإمكانية التعبيرية البسيطة لجسد"ي". فهناك بداية تجربتا المرآة والموت [الجثة، والجسد (soma) في الإغريقية] اللتان تشتغلان كيوطوبيات مضادة. هذه التجربة تجعل اليوطوبيا المهدِّئة لـ «فضاء يتعذر بلوغه» تنقلب على «هذا السُّعار الطُّوباوي الكبير الذي يُمزِّق ويَجعل جسدَنا يتبخَّر في كلِّ لحظة»: صورتي في المرآة، جثتي الخاصة توجدان دائماً في مكان آخر. وبمعنى ما، هذه الأمكنة الأخرى، تمكنني من أن أتواجد ها هنا [للحظة]، وأن أحتل مكاناً معيناً، و بأقوى معاني هذه العبارة، أن أتخذ جسداً، وأن أكون "جسدي". والطريقة الأخرى لتجنب هذا التشتت الطوباوي للجسد تتمثل، حسب فوكو، في ممارسة الحب، ما دام الحب كما في كلماته الأخيرة، «فِي غمرة الحبِّ، الجسدُ يكونُ ها هُنا». والآخر المحسوس، أي الحبيب بكل «جسده» هو الذي يظهر جسدي أمام

ذاته، وليس قطعاً هذا المكان الآخر [للانعكاس أو للجثة]؛ الحب الذي، بمعنى ما، يذوتِنُ الجسدَ بـ «نزع الطوباوية» عنه، وإذن بحلِّ التوتُّر التكويني للعلاقة بين «جسدي» واليوطوبيا.

فمن *"الكلمات والأشياء"* إلى هذه المحاضرة حول "الجسد الطوباوي"، يبدو المسار الفكري الذي تابعه فوكو مثيراً وأبعد ما يكون عن الخطية. فعلى الصعيد العام، يدل بدون شك على انشغال متواصل بمسألة الفضاء وتمثيلاته. ولكنه عند التدقيق، يشهد بالخصوص على بحث حرٍّ ومفتوح على الموضوعات المقترنة باليوطوبيا والأماكن الأخرى. هذه الموضوعات طرحها فوكو من جوانبها الأكثر تنوعاً (وحتى الأكثر تناقضاً)، ولكن بحسب انحراف ثلاثي للجذر المكاني، المتوافق على التوالي مع أبعاد اللغة، والمجتمع، والجسد الخاص –ومع المدونات المختلفة للتجربة التي ترتبط بها: التجربة الأدبية، وتجريب الفضاء الاجتماعي وأشكال الحياة الجماعية، واختبار التجسيد.

وعلى أي من مستويات التحليل هذه، تعمل الإحالة على الأماكن الأخرى وعلى اليوطوبيا على التفكير في العلاقة مع آخر أو مع مكان آخر يأتي لخلخلة بداهة الكلمات، والأمكنة، والأجساد. فالمكان الآخر الأدبي يحرِّف بسخرية نظام الخطاب إلى حد إظهار إمكانية حدوثه. والأماكن الأخرى الاجتماعية تعيد تأهيل المكان الحقيقي بأن تضع في المقام الأول صيغا مختلفة للإقامة فيه وبأن تجعل الأبعاد الرمزية والخيالية تحيى فيه. أخيراً، الجسد نفسه، هذه القطعة من المكان، يُبطل التوتُّرَ بين الهنا والهناك، إذ يجعل بدوره الحقيقيَّ والخياليَّ يتحاوران، ولكن أيضاً الأنا والآخر.

هذه الخلاصة تقودنا إذن لملاحظة أخيرة. لقد أمكننا أن نسجل بالفعل أنه بين *"الكلمات والأشياء"*، حيث ظهر للمرة الأولى التمييز بين اليوطوبيا والأماكن الأخرى، وبينَ المحاضرتين الإذاعيتين لدجنبر 1966، قام فوكو بالملموس بتنويع استعماله لمفهوم الفضاء، منتقلاً حتى من استعمال مجازي لهذا المفهوم ["فضاء" الخطاب] إلى استعمال نظام المراجِع صراحةً [يتعلق الأمر والحالة هذه ببعض المواقع والتحويلات الاجتماعيين، أو أيضاً بالفضاء المعيش للجسد الخاص]. لكن من الواضح في المقابل أن مجموع هذا التفكير يجد انسجامه العميق في فكرة أنه لا وجود لفضاء معين بدون هذه "الفضاءات الأخرى" التي تأتي لتغنيه أو لتنازعه، أي في النهاية تفتحه على إمكانية لصيرورة.

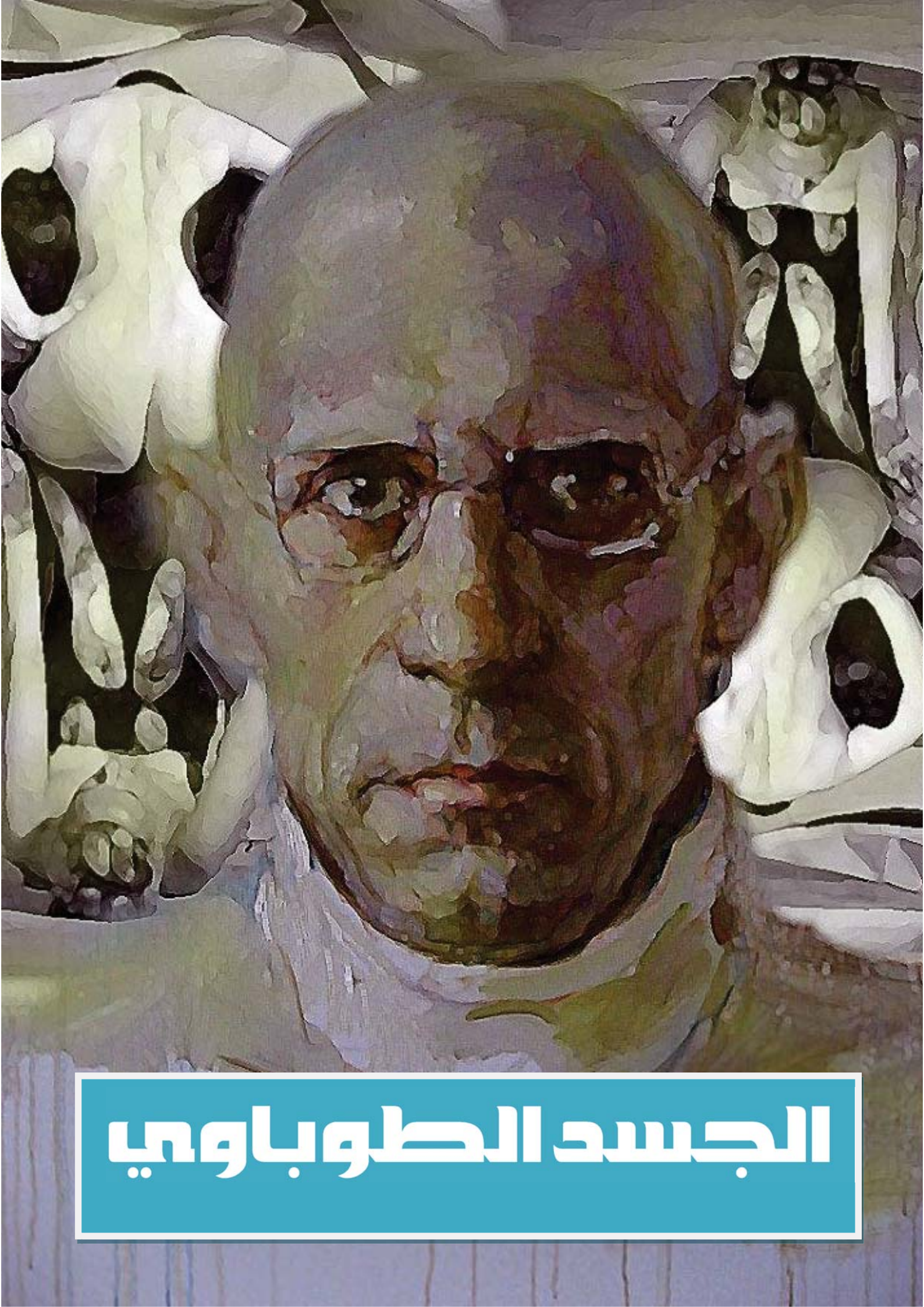

الجسد الطوباوي

هذا المكانُ الذي غَدا بروست يحتلُّه من جديد، بهدوءٍ، وبلهْفَةٍ، لدى كل يقظةٍ من يقظاته، هذا المكانُ بالذَّات، بمجرَّد أنْ أفتحَ عيني، لا أستطيعُ أنْ أُفلِت منْ قبضَته، لا لأنَّه يشلُّ حركتي على الفور -ما دمتُ أستطيعُ على كل حالٍ ليس فقط التحرُّك والتزعزُع، ولكن فضلاً عنْ ذلك يُمكنُني أنْ أحرِّكَ هذا المكان، وأن أزعزعَه، وأن أحوِّله من مكانه-، كلُّ ما في الأمر: أنَّني لا أستطيع أن أتحرَّك بدونه؛ لا أستطيعُ أنْ أتركَه هناك حيث يُقيم لكي أذهبَ، أنا، بعيداً. في وُسعي أنْ أذهبَ حتى أقصى العالَم، وفي وسعي أنْ أَلْبِدَ، صباحاً، تحت أغطيَتي، متظاهراً بصبْيانيَتي ما استطعت، وفي وسعي أنْ أذوبَ في الشَّمس على الشاطئ، لكنَّه سيظلُّ يلازِمُني أينَما حلَلتُ وارتحلْت. إنَّه هنُا لا يُمكِن تعويضُه، وليس في مكانٍ آخرَ (ailleurs) بالمطلق. إنَّ جسدي يعتبر نقيضاً لكلّ طوباوية، أي أنه لا يستظل بأي سماء أخرى، إنه المكان المطلق، المقْطعُ الصَّغير من الفضاء الذي من خلاله، بالمعنى الحرْفي، أكوِّن جسداً.

جسدي، هذا المكانُ ["topie" المشتقة من الكلمة اللاتينية "tópos" أي المكان] عديمُ الرَّحمة. ولو فرضْنا، لحسن الحظّ، أنَّني عشتُ معه في نوع من الأُلفَة المبتذَلة، كما لو كنتُ أعيشُ مع شبَح، كما يحدثُ مع هذه الأشياء اليومية التي في النهاية لا ألحظُها والتي صبَغَتها الحياةُ بلونِها الكالِح؛ مثلما يحدُث لهذه المواقِد، ولهذه السُّقوف التي تُرْغي كلَّ مساءٍ أمام نافذتي؟ فسيُطالِعُني كلَّ صباح، بنفْس الحضور، بنفْس الجُرح؛ وسترتسِم تحت عُيوني الصُّورةُ الحتميةُ التي تفرضُها المرآة: وجهٌ شاحبٌ، كَتِفان مُقوَّستان، رُؤيةٌ ضبابيةٌ، ولا شعرةٌ واحدةٌ في الرأس، حقّا ليسَ جميلاً. فداخل هذه القَوْقعَة القبيحَة من رأسي، داخل هذا القفَص الذي لا يروقُ لِي، يتوجَّب عليَّ أنْ أُظهِر نفسي وأنْ أتنزَّه؛ وعبْر هذه الشبَكَة عليَّ أنْ أتكلَّم، وأنْ أنظُر، وأعرضَ نفسي للنَّظر؛ وأنْ أتعفَّن تحت هذا الجِلْد. جسَدي، إنَّه المكانُ الميْئوسُ منه الذي حُكِم عليَّ أن أعيشَ فيه. وأعتقد، على كل حال، أنَّ كلَّ هذه اليوطوبْيَات لم تُخلقْ إلا لمناوَأتِه ومسْحِه من الوجود. جاذبيةُ اليُوطوبْيا، والجَمالِ، دهشَةُ اليُوطوبيا، ما هو المطلوبُ منها؟ إن اليُوطوبْيا هي المكانُ الذي

يقَع خارجَ كلِّ الأمكنَة، لكنَّه المكانُ الذي نَحْظى فيه بجسَدٍ بدون جسَد، جسدٍ سيكون جميلًا، رائقاً، شفَّافاً، نُورانياً، نشيطاً، جبَّاراً في قوَّته، لا نِهائياً في زمنيته، نحيلاً في قِوامه، لا مَرئيّاً، محروساً، ودائماً مُجَمَّلاً؛ وعلى الأرجح قد تكون اليوطوبيا الأولى، تلك الأكثر رسوخاً في قلب البشر، قد تكون يوطوبيا جسدٍ غير ماديّ. إنَّ بلادَ الجِنّيات، وبلادَ العفاريت، والسَّحَرة، هيَ طبعاً البلادُ حيثُ تَنتَقِل فيها الأجسادُ بسرعةٍ أكبرَ من الضَّوء، البلادُ التي تُشفَى فيها الجُروح بسرعة البرْق باستعمال عِقَارٍ سِحريّ، البلادُ التي قد نسقطُ فيها من جبلٍ وننهضُ منه أحياءً، والبلادُ التي نَظهَرُ فيها حينما نُريد ونَلبَس قبَّعةَ الإخْفاء حينما نَرغَب. وإذا كانَ هناك من بلادٍ عجائبيَّةٍ، فبالتحديد، لكي أكونَ عليها أميراً فاتِناً ولكي يغدو كلُّ الصُّلْع الجميلين مُزَغَّبين وبَشِعين كدبَبَةٍ صغيرة.

لكن توجَد أيضاً يوطوبيا هدفُها مَسحُ الجسد منَ الوجود. هذه اليوطوبيا، تتَعلَّق ببلاد الموتى، إنَّها المواقعُ الأثرية الطوباويةُ الكبيرةُ التي تركتها لنا الحضارةُ المصريةُ القديمة. فالمومياءاتُ، على كلّ حالٍ، ما هيَ؟ إنَّها يُوطوبيا الجسد المنفيّ والمتّغيّر في هيئَتِه. هناك أيضاً الأقْنِعةُ الذَّهبية الميسانية• (mycénienne) التي كانت تُوضَع على وُجُوه الملوكِ الموتى: يوطوبيا أجسادِهِم الممجَّدة، الجبَّارة، الشَّمسية، التي تُرعِب الجيوش. كان هناكَ أيضاً فنُّ الصِّباغة ونقشُ القبورِ؛ وشواهِد القُبور الممدَّدة، التي تُطيلُ في السُّكون منذ العصور الوسْطى شباباً لا يَشيخُ. وحالياً، في أيامنا هذه، هناك هذه المكعَّبات البسيطةُ من الرُّخام، وهذه الأجسادُ المنحوتةُ من الحجارة، وهذه الرُّسوم المنتظمةُ والبيضاءُ على اللوحة الكبيرة السَّوداء للمقابر. بين هذه المواقع الأثرية ليوطوبيا الأموات، يصبح جسدي فجأة صلباً كشيء من الأشياء، وخالداً كإله.

لكن الأكثرَ عِناداً ربَّما، والأكثر قوَّةً من هذه اليوطوبيات التي نتوسَّل بها لمسح الجغرافيا الحزينة للجسد، هو ما تمنحنا إيَّاه الأسطورةُ الكبيرةُ للرُّوح منذ فجر التَّاريخ الغربيّ. إنَّ الروحَ تعملُ في جسدي بطريقة مُثيرة للدَّهشة. فهي تُقيم بداخله، بكلِّ تأكيدٍ، ولكنَّها

• يتعلق الأمر بالحضارة الميسانية وهي حضارة توسعت انطلاقا من جنوب اليونان لتوحِّد كل البلاد المطلة على بحر إيجة في الفترة الزمنية الممتدة بين 1650 و 1100، قبل الميلاد. وقد عرفت أوج قوتها بين سنة 1400 و1200، قبل الميلاد. (م)

تعرِف جيّداً كيف تهربُ منه: تهربُ منه لترى الأشياءَ، من خلال نوافِذ عُيوني، تهربُ منه لكي تحلمَ حينما أنامُ، ولكي تستمرَّ في العيش حينما أموتُ. رائعةٌ هيَ روحي، ونقيَّةٌ، وبيضاءُ؛ وإذا حدثَ أنْ قامَ جسدي الطِّيني -وهو في كلِّ الأحوال ليسَ نقيّاً كثيراً-، بتدنيسِها، فسيُوكلُ لفضيلةٍ، ولقوَّة جبَّارة، ولألْفِ شَعيرةٍ مقدَّسةٍ أن تُعيدَ إليها طهارتَها الأولى. وستدومُ روحي زمناً طويلاً، وأكثرَ منْ هذا الزَّمن الطويل، عندما سيذهبُ جسدي ليَموت. فلْتَحيَ روحي! إنَّها جسَدي النُّوراني، المطهَّر، الفاضِل، الرَّشيق، المتحرِّك، الدَّافئ، والطَّريّ، إنها جسدي الناعمُ، المخْصِيُّ، المدوَّرُ كفُقاعَة صابون.

هكذا إذن! يكون جسدي بفضل كل هذه اليوطوبيات، قد اختفى. اختفى كشعلة شمعة ننفخ عليها بالفم. فالروح، والمدافن، والعفاريت والجنيات كتمتْ على أنفاسه، جعلتْه يختفي في لحظة، نفختْ على ثقله، على قبْحِه، وأعادتني فاتِناً وخالِداً.

لكنَّ جسدِي، والحقُّ يقال، لا يتركُ نفسَه يُختزل بسهولة. فهو يمتلك لِذاته، على كلِّ حالٍ، موارِده الخاصَّة من العجائبي؛ يمتلكُ في داخله، هو أيضاً، أماكنَ بلا أمكنةٍ، وأماكنَ أكثرَ غوْراً، وأكثر عِناداً أيضاً من الرُّوح، ومن القبْر، ومن سِحْر السَّحرة. فلهُ كهوفُه وخزائنُه، وله رحلاتُه الغامضةُ، وله شواطئُه المشمسَة. رأسي، على سبيل المثال، رأسي: ما أغربَها من كهفٍ مفتوحٍ على العالم الخارجي من خلال نافِذَتيْنِ اثنتيْن، وفَتحَتيْن اثنتيْن، أنا على يقينٍ مِنْهُما، ما دمت أراهُما في المِرْآة؛ حتَّى أنَّهُ يُمكنُني إغْلاقُ إحْداها أو الأخرَى بشكلٍ مُستقلّ! مع ذلك فأنا لا أنظُرُ سوى بواحدةٍ، من هذه الفَتحات، لأنَّني لا أرى أمامي سوى مَنْظرٍ واحدٍ، مُتَّصل، بدون فاصل ولا قَطْع. وداخِل هذه الرأس، كيف تجري الأشياء؟ وإذن، فإن الأشياءَ تَأْتي لِتُسكِنَ نفسَها في هذه الرأس. إنَّها تدخلُ فيها – وهذا، أنَا في غايةِ اليَقين أَنَّ الأشياءَ حينَما أنظرُ إليها تَدخُل فِي رَأْسِي، ما دامَت الشمسُ، حينما تَضْرِبُ عَيْنِي بقوَّةٍ وتُعْميني، ستذهب إلى حد تَمْزيقِ بَاطِن دِماغي -، ومع ذلك فهذِهِ الأشياءُ التي تَدْخُل في رأسي تَبْقَى طبْعا في الخارج، ما دمتُ أراها أمامي، ولكي أَعْقِدَ بينها الرَّوابط، عليَّ أنْ أتقدَّم بدوري.

جسدٌ غامضٌ، جسدٌ قابلٌ للنفاذ وغيرُ مُنْفِذ، جَسدٌ مفتوحٌ ومغلَق: جسدٌ طُوباويّ. جسدٌ مرئيٌّ بشكلٍ مُطلق، منْ جانبٍ واحدٍ: أَعْرِفُ جيّداً معنى أنْ يُنظَرَ إليْك من شخصٍ آخرَ منْ رَأسِك حتَّى أُخْمُصِ قدميْك، أعرفُ ما يَعنِيه أنْ تتمَّ مُراقبتُك مِن وراءٍ، وأن تُراقَب مِن أعْلى الكَتِف، وأن تُفَاجَأَ رغْم توقُّعِكَ للأمر، أعرفُ ماذا يَعْنِيهِ أنْ تكونَ عارياً؛ مع ذلك هذا الجسد نفسه الذي هو مَرْئِيٌّ للغاية، مُعرَّض للسَّحْب، ومُجْتَذَبٌ لنوع من عدم قابلية الرؤية التي لا أستطيعُ عنها فَكاكاً. فهذه الجمْجُمة، مُؤخِّرةُ جُمجمتي التي يُمْكنُني أنْ أتحسَّسَها، هَا هُنا، بأصابِعي، ولكن دون أنْ أتَمكَّن أبداً من رُؤيتِها؛ هذا الظَّهْرُ الذي أحسُّ به مُنْضَغِطاً على مُسْنَد الفِراش على الأريكَة، حينما أكونُ مُمدَّداً فوقها، لكنه [الظهر] لا يُدهِشُني إلا بواسطة خديعة المرآة؛ وماذا تَعْنيه هذِه الكَتِفُ، التي أعرفُ بدقَّةٍ حركاتِها وأوضاعَها، لكن التي لن أعرفَ أبداً أنْ أراها من دونِ أن أديرَ نفسِي بشكلٍ مُؤلِم. إنَّ الجسدَ هو هذا الشبح الذي لا يظهَرُ إلَّا فِي سَرابِ المرايا، وأيضاً، لا يظهرُ إلَّا بشكلٍ مُقَطَّع. بعد كلِّ ما قيل هل ما زلتُ حقّا في حاجةٍ للعفاريت وللجِنِّيَات، للمَوْت وللرُّوح، لكي أكون مَرْئياً ولا مرئيّاً في آن بلا انفكاك؟ وإذَنْ فهذا الجسدُ، خفيفٌ، وشفَّاف، وفاقدٌ للوَزن؛ لا شيءَ أقلُّ شَيْئيةً منه: إنَّهُ يركضُ، ويفعلُ، يحيى، ويرغبُ، يتركُ نفسَه يُخترقُ بدونِ مُقاومةٍ من كلِّ مَقاصِدي. أيْ نَعَم! للأسف حتَّى اليومَ الذي أحسُّ به بالألَم، حيث سيتجَوَّف كَهْفُ بَطْني، حيث ستَنْسَدُّ وستَغَصُّ، وسَيَطْفَحُ بالقُطْن صَدْري وعُنُقي. حتى اليومَ الذي سيترَصَّعُ فيه باطِنُ فَمي بألَمِ الأسْنان.

حِينَها، وحينَها فقط، أكفُّ عنْ أَنْ أَكُونَ خَفيفاً، وفاقِداً للوزن، إلخ. وسأصبحُ شيئاً، هندسةً عجائبيةً ومحطَّمَة.

لا، حقّاً، لا حاجةَ بِي لا للسِّحر ولا لعالَم الجنِّيات، لا حاجةَ بي لروحٍ ولا لموتٍ لكي أغدو فِي آنٍ غيرَ قابلٍ للنَّفاذ وشفَّافاً، مرئياً ولا مرئيّاً، حياةً وشيئاً: فلكيْ أكونَ يوطوبيا، يكْفي فقط أنْ أكونَ *جسَداً*. كل هذه اليوطوبيات التي أتوسَّلُ بها لأتهرَّب من جسدي، تتوفَّر بكلِّ بساطةٍ على نَمُوذَجِها ونقطةِ ارتكازِها الأُولى، تَتوفَّر على المكان الذي صَدَرَتْ عنهُ في الأصْل فِي جسدي ذاتِه. ولقد أخطأتُ خطأً فادِحاً، منذ قليلٍ، بقولي إن

اليوطوبيات كانتْ موجَّهةً ضِدَّ الجسدِ وتَهْدِفُ إلى مَحْوِه: والأصَحُّ أنَّها وُلدتْ من الجسدِ نفسِه، ثم لربَّما بعدَ ذلكَ انقلبتْ عليْه.

في كل الأحوال، هناكَ شيءٌ مؤكَّد، وهو أنَّ الجسدَ الإنسانيَّ هو الفاعلُ الأساسيُّ لكلِّ هذه اليوطوبيات. وقبلَ كلِّ شيءٍ، فمِنْ أقدَم اليوطوبيات التي حَكاها النَّاسُ لأنْفُسِهم، أليستْ هيَ حلمَ الجسَد الهائِل، فائِق الحدِّ، الذي يلتَهِم الفضاء ويتحكَّم في العالَم؟ إنَّه اليوطوبيا القديمةُ للعمالِقَة، التي نَجِدها في الكثير من الحكايات الأُسطورية، في أوروبا، وفي أفريقيا، وفي أوقيانوسيا، وفي آسيا؛ هذه الأسطورةُ القديمةُ لطالما غذَّت المِخْيالَ الغربيّ، من بروميثيوس وحتى غاليفر.

إنَّ الجسدَ أيضا هو أكبرُ فاعلٍ طوباويّ، حينما نضعُ عليه الأَقْنعةَ، ومساحيقَ التَّجْميلِ، والوَشْمَ. إنَّ تقنيعَ الجسد، والتَّبرُّجَ، والوشمَ، لا يَهْدِف، كما يمكنُ أن نتخيَّله، إلى الحصولِ على جسدٍ مختلفٍ، ببساطةٍ أجملُ قليلاً، مزوَّقٌ أكثر، وأنْ نتعرَّف عليه بشكلٍ أَسْلَس، بلْ إنَّ تقْنيعَ الجسد وتَبْريجه، ووشْمه، يعني شيئاً مختلفاً تماماً، يتمثَّل في جعلِ الجسدِ يدخلُ في تواصلٍ مع القوَى السِّحريَّةِ والطَّاقاتِ اللَّامرْئية. إنَّ القِناعَ، والعلامةَ الموشومةَ، ومسحوقَ التجميلِ يقدِّمونَ لغةً متكاملةً عن الجسد: لغةً سريةً متكاملةً، ولغةً مشفَّرةً متكاملة، سريةً ومقدَّسةً، تستَدْعي فوق الجسد نفْسه عنفَ الله، والقوةَ الصمَّاءَ للمقدَّس أو نزقَ الرَّغبة. إنَّ القِناع، والوَشْمَ، ومسحوقَ التَّجميل يَضَعون الجسدَ في فضاءٍ آخرَ، إنَّهم يجعلونه يدخلُ في مكانٍ ليسَ هوَ المكانَ المعروفَ في العالَم، إنهمْ يَجعلونَ منْ هذا الجسدِ قِطْعةً من فضاءٍ خياليٍّ سيدخلُ في تواصُل مع عالَم الألوهية أو العالَم الآخَر. إنَّنا نغدو أسرىَ للآلِهة، أو أنَّنا نغدو أسرى للشَّخص الذي قُمْنا بإغْوائِه. وفي كلِّ الأحوال، فالقناعُ، والوشمُ ومسحوقُ التَّجميل عملياتٌ يتمُّ من خلالها قَلْعُ الجسدِ من فضائه الخاص وقَذْفُه في فضاءٍ آخَر.

لنُنصت مثلاً إلى هذه الحكاية اليابانيةِ والطريقةِ التي يأخذُ بها وَاشِمٌ جسدَ الفتاةِ الشَّابة التي يعشقُ نحوَ عالَم ليسَ بعالَمِنا: «كانت الشمس تَقْذِفُ أشعَّتَها على الوادي وتَحْرِقُ الغرفةَ ذاتَ السَّبْع حصائرَ. أشعَّتُها المنعكسةُ على صفحة الماء تشكِّل رسْماً من الأمواج المذهَّبة على أوراق الحاجز الواقي من الهواء وعلى وجهِ الفتاة الغارقَةِ في نومٍ

عميقٍ. وبعد أنْ جَذَبَ سايْكيشي السَّتائرَ، وأخذَ في يديهِ عُدَّتَه التي يَشِمُ بها. وللحظاتٍ، ظلَّتْ مُمدَّدة في نوعٍ من الوَجْد. وعند هذه اللحظةِ فقط تذوَّقَ بِمِلْءِ كيَانه الجمالَ الساحرَ للفتاةِ الشَّابة. حتى إنَّه تهيَّأَ له بأنَّه يستطيعُ أنْ يجلسَ بلا حِراكٍ أمامَ هذا الوجْهِ لعشراتِ ولمئاتِ السنينِ بدون أنْ يسْتشْعِر أيَّ تعبٍ وأيَّ ملَل. وكما أنَّ شعبَ مَنْف (Memphis) كانوا يزخرفون قديماً الأرضَ الرائعةَ لمصرَ بالإهرامات وبأبي الهول، كذلك سايْكيشي بكل الحبِّ الذي يغمرُ قلبَه أراد أنْ يزخرفَ برسْمِه البَشَرَة الغضَّةَ للفتاةِ الشَّابة. وقد أكبَّ عليها فوراً برأسِ ريشاتِه الملوَّنة التي كان يُمسكُها بين إبْهامِه والبِنْصَر والإصْبعِ الصَّغير ليَدِه اليُسرى، وما إن تنتظمُ الخطوطُ، حتى كان ينخَسُها بإبْرتِه الممسُوكَة بيَدِه اليُمنى».

وإذا كنا نعتقد بأن الثيابَ المقدَّسة، أو المدنَّسة، دينيةً كانت أم مدنيةً يمكنُها أن تُدخل الفردَ في الفضاء المُغلَق للدِّيني أو في الشَّبكة غيرِ المرئيةِ للمجتمع، فيمكنُنا أن نرى كل ما يمسُّ بالجسد -رسم، لون، إكليل، قلنسوة، ثياب، بزَّة-، كلُّها تجعل اليوطوبيات المختومة في الجسد تتفتَّح تحت أشكال محسوسة ومبقَّعة.

لكن هل يتوجَّب علينا النزول أيضاً إلى ما دون الثِّياب، ولربما يتوجَّب علينا أنْ نبلغَ اللحْمَ نفسَه، آنذاك نرى أحياناً، وفي نهاية التحليل، أنَّ الجسدَ نفسَه هو الذي يَقْلِبُ عليْه قوَّته الطوباوية، ويعملُ على إدخال كلِّ فضاءِ الدِّيني والمقدَّس، كلِّ فضاءِ العالَم الآخَر، كلَّ الفضاء المتعلِّق بنقيض العالم، إدخالِه إلى داخلِ الفضاءِ المُعَدِّ له. وإذن، فسيكون الجسدُ، في مادِّيته، وفي لَحْميَّتِه، بمثابة المنتُوج لاستيهاماتِه الخاصَّة. وعلى كلِّ حالٍ، ألَا يكون جسدُ الرَّاقص هو بالضبط جسداً مُمطَّطاً بمقدار ما يحتاج إليه فضاء بكامله يشكل خارجه وداخله في الآن نفسه؟ وألا يُقال الشَّيء نفسُه عن مدمني المخدِّرات، والمسكونين، الذين يغدو الجسدُ بالنسبة لهمْ جحيماً؛ والموصومين بالعَار، الذين يغدو جسدهم عَذاباً، افتداءً وخلاصاً، وفردوساً دموياً.

لقد كنتُ غبيّاً حقاً، قبلَ قليلٍ، باعتقادي أنَّ الجسدَ لم يكنْ له أبداً وجودٌ في مكانٍ آخرَ، وبأنَّه كان دوماً هَا هُنا بما لا يُعوَّض وبأنَّه يعارضُ كلَّ يوطوبيا.

وبالفعل، فجسدي يُوجد *دائماً* في مكانٍ آخرَ (ailleurs)، إنَّه مرتبطٌ بكلِّ الأمكنةِ الأخرَى (les ailleurs) للعالَم، والحقُّ يُقال، إنَّه ما مِن وجودٍ لمكانٍ آخرَ إلَّا في العالَم. لأنَّهُ بالدَّورانِ حولَه تَنتظِم الأشياء، وفي العلاقةِ معَه -وفي العلاقةِ معه كما في العلاقة مع سُلطانٍ- يوجدُ فوْقٌ، تَحْتٌ، يَمينٌ، يسارٌ، أمامٌ، وراءٌ، قريبٌ، وبعيدٌ. إنَّ الجسدَ يشكِّل نقطةَ صِفْرِ العالَم، وفِي النُّقطةِ التي تتقاطَع عندها الطُّرُق والفضاءاتُ فإنَّ الجسدَ لا يكونُ في أيِّ مكان: إنَّه في قلْبِ العالَم فِي هذه النَّواة الطُّوباوية التي انطلاقاً منها أحلمُ، أتكلَّمُ، أتقدَّمُ، أتخيَّلُ، وأتصوَّرُ الأشياءَ فِي أماكنِها وأنْفيها أيضاً اعتماداً على القوَّة اللامحدودة لليوطوبيات التي أتخيَّلُها. إنَّ جسدي لَهُوَ مثلُ مدينةِ الشَّمس، ليسَ لهُ مكانٌ، لكنْ مِن داخِلِه تَخرجُ وتشعُّ كلُّ الأمكنَة الممكنَة، حقيقيةً أو خياليَّة.

وعلى كلِّ حالٍ، فالأطفالُ يقضونَ وقتاً طويلاً ليعلَموا بأنَّ لهمْ جسداً. فطوال شهورٍ، وعلى مدَى أكثرَ منْ عامٍ، فهم لا يملكون سوى جسدٍ مبعثَر، من أعضاء، تجويفاتٍ، وثقوبٍ، وكلُّ هذه لا تنتظِم، كلُّ هذه لا تصبحُ حَرْفِياً جسداً إلا في صورة المرآة. وبشكل أغرب أيضاً، فإن إغريق هوميروس كانوا يفتقرون لكلمة تعيّن وحدةَ الجسد. ومما يبدو أكثرَ تناقضاً، في مواجهة طروادة، وتحت الأسوار المُدافَع عنها من لدن هكتور ورفاقه، إذْ لم يكنْ للجسد وجودٌ، كلُّ ما هنالك كانتْ أَذْرُعٌ مرفوعةٌ، وصدورٌ جسورةٌ، وسيقانٌ رشيقةٌ، وخوذاتٌ بارقةٌ فوق الرُّؤوس: لكنْ لم يكنْ هناكَ من جسد. والكلمة الإغريقية التي تعني جسداً لا تظهَر عند هوميروس إلا لتعيّن الجثَّة. وإنها الجثَّةُ، بالنتيجة، إنها الجثةُ وإنَّها المرآةُ اللَّتان تعلّمانِنا [في النهاية التي علَّمتِ الإغريق والتي تُعلّم الآن الأطفال] بأنَّنا نمتلك جسداً، وبأنَّ هذا الجسدَ له هيئةٌ، وهذه الهيئةُ لها محيطٌ، وبأن في داخل هذا المحيط هناك سُمْكٌ، ووزنٌ؛ باختصار، أنَّ الجسد يحتلُّ مكاناً. إنَّها المرآةُ وإنَّها الجثَّةُ هما اللتان تُعيّنان فضاءً للتَّجربة الطُّوباوية العميقةِ والأصيلةِ للجسد؛ إنَّها المرآةُ ثم الجثة اللتان تُسكِتان وتُهدِّئان وتَضربان سيَاجاً -السياج الذي يُوجد الآنَ من أجل أن يسجِننا- على هذا السُّعار الطُّوباوي الكبير الذي يُمزّق ويَجعل جسدَنا يتبخَّر في كلِّ لحظة. إنَّه بفضلهما، بفضلِ المرآةِ والجثَّة لا يغدو جسدُنا مجرَّد يوطوبيا خالصة وبسيطة. وإذن، إذا فكَّرنا أنَّ صورةَ المرآة تقطُن بالنسبة لنا في مكانٍ يتعذَّر بلوغُه، وبأنَّه يستحيلُ علينا أن

نكونَ في المكان الذي سيُؤْوِي جسدَنا، وإذا فكَّرنا أنَّ المرآةَ والجثَّة توجدان هما أنفسهما في مكان آخرَ منيع، فحينها نكتشف أن اليوطوبيات وحدها يمكنها أن تنغلِق حول ذاتِها وتخبِّئ للحظةٍ اليوطوبيا العميقةَ والمتسلّطة على جسدنا.

هل يقود هذا إلى القول إن ممارسة الحبّ، معناه الإحساس بأنَّ جسدَنا ينْغلِق على نفسه، ليوجد أخيراً خارج كل طوباوية، بكلِّ ما يملكُه من كثافةٍ، في أحضانِ الآخَر. تحت أصابعِ الآخَر الذي يتحسَّسكم، كلُّ الأجزاء اللامرئية من جسدكم تبدأ في الظُّهور إلى حيز الوجود، ففي ملاقاة شفاهِكم لشفاهِ الآخرين تبدأ شفاهُكم في الوجود، وفي ملاقاةِ شِفاه الآخَر شفاهُكم تصبح محسوسَة، وأمام عينَيّ نصْف المغلقَتين يَحوز وجهُكم تحقُّقه، وسأُلقي أخيراً نظرةً لكي أرى أجفانَكم مُغمضة.

إنَّ الحبَّ هو أيضاً، مثلُ المرآة ومثلُ الموتِ، يُهدِّئ يوطوبيا جسدِكم، إنَّه يُسكتُها، ويُعيدُ إليها هدوءَها، إنَّه يُغلِق عليها كما لو كانت في عُلبَة، إنَّه يَحبسُها ويَختِم عليها. ولذلك يعتبر الحبُّ قريباً جداً من وهْم المرآة وتهديد الموت؛ وإذا حدث أن عشقنا بجنون، بالرَّغم من هذين الوجْهَين المحفوفَيْن بالمخاطر، في ممارسةَ الحبِّ، فلأنَّ فِي داخل الحبِّ، الجسدُ يكونُ *ها هُنا*.

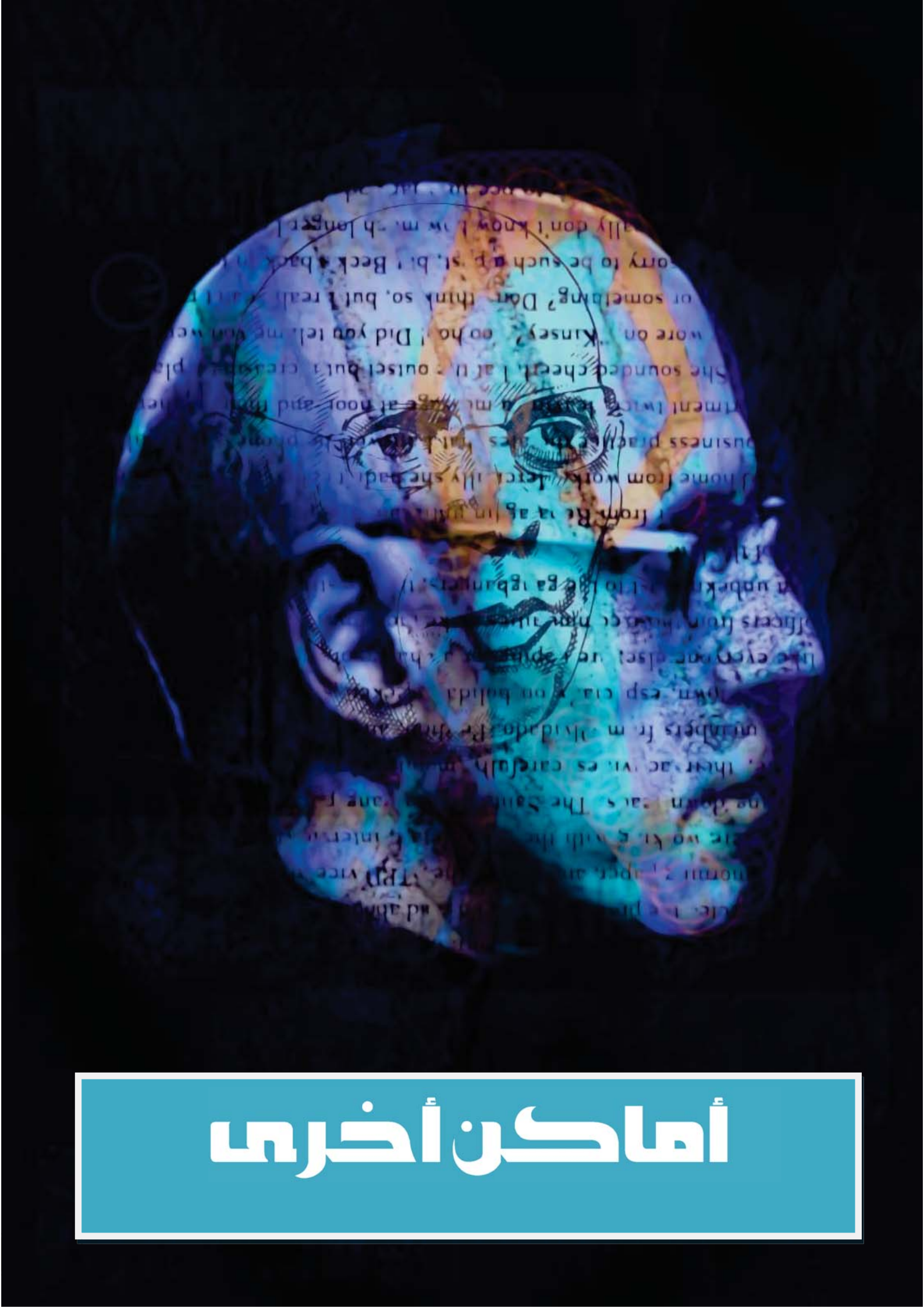

أماكن أخرى

«هناك إذن بلدانٌ بلا أماكنَ وتواريخُ بلا تعاقبِ أحداث؛ هناك مدنٌ، وكواكبُ، وقاراتٌ، وأكوانٌ، يستحيل أن نعثرَ لها على أيِّ أثَر في أي خريطة وتحت أيِّ سماء، ببساطة لأنها لا تنتمي لأيِّ فضاء. بدون شك، لأن هذه المدنُ، وهذه القاراتُ، وهذه الكواكبُ وُلدت، كما يقال، في رؤوس البَشر، أو على الأصحّ، ولدتْ في فجَوات كلماتهم، في كثافة حكاياتهم، أو أيضاً في المكان الخياليّ لأحلامهم، وفي فراغ عواطفهم؛ باختصار، إنَّها نعومةُ اليوطوبيات. ومع ذلك أعتقد بوجود -وهذا في كل المجتمعات- يوطوبيات لها مكان محدَّد وحقيقيٌّ، مكانٌ يمكن أن نحدِّده على خريطة؛ ويوطوبيات لها زمنٌ محدَّد، يمكننا أن نثبِّته ونقيسَه في التقويم الزمني المعتاد لكل يوم؛ ومن المرجح جداً أنَّ كلَّ مجموعةٍ بشرية، كيفما كانت، تقتَطِع، في المكان الذي تحتله، وحيثُ تحيَى فعلياً، وحيث تعملُ، أماكنَ يوطوبية، وفي الزمن الذي تكون منهمِكةً فيه، لحظاتٍ من زمنٍ غير موجود.

إليكم ما أريدُ قولَه: نحن لا نعيشُ في مكانٍ محايِد وفي صفحةٍ بيضاءَ؛ لا نعيشُ، ولا نموتُ، ولا نحبُّ داخل مستطيلِ صفحةٍ من الورق. نحن نعيشُ، ونموتُ، ونحبُّ في فضاء مقسَّم إلى خانات، مُقَطَّع، وملوَّن، بمناطقَ منيرةٍ وأخرى قاتمةٍ، باختلافات في المستوى، بدرجاتِ سلَّم، بِحُفر، بمرتفعاتٍ، بجهاتٍ صلبةٍ وأخرى هشَّة، قابلة للاختراق، ومُنْفِذة للسوائل. وهناك مناطقُ عبورٍ، كالشوارع، والقطارات، والمترو؛ هناك مناطقُ مفتوحةٌ للتوقُّف القصير، كالمقاهي، وقاعاتِ السينما، والشواطئ، والفنادق، ثمَّ هناك المناطقُ المغلقَة للراحة كالمنازل. وإذن، فبين كل هذه الأماكن المتمايزة إحداها عن الأخرى، هناك منْ هيَ مختلفة بشكل حاسم: كالأماكنِ التي تتعارض مع كل ما عداها، والتي تكون موجَّهة بشكل ما لمحوها، ولإبطال مفعولِها أو لتطهيرها. إنها نوعاً ما *فضاءات -مضادة*. وهذه الفضاءات- المضادة، هذه اليوطوبيات المحصورة في موضِع، يعرفها الأطفال جيداً. وهي طبعاً، ما خفيَ من الحديقة، وطبعاً هي مخزنُ الحبوب، أو الأفضل من ذلك، خيمةُ الهنديّ المنصوبة وسط مخزن الحبوب، أو أيضاً هي -يوم الخميس بعد الزوال- السريرُ الكبيرُ للوالِدين. إنَّه فوق هذا السرير الرَّحب حيث نكتشفُ المحيط،

ما دام إنه يُمْكنُنا أن نسبَح بين أغطيته؛ ثم إن هذا السرير الرَّحب بعد ذلك هو أيضاً السماءُ ما دام أننا نستطيع أن نهتزَّ فوق نوابضه؛ وهو أيضاً الغابةُ، ما دمنا نَختبئُ فيه؛ وهو الليلُ، ما دمنا نغْدو أشباحاً بين أغطيته؛ وهو المتعةُ، أخيراً، ما دام أننا سنعاقب مع عودة الوالدين إلى المنزل.

هذه الفضاءات-المضادة، على الأصح، ليست الاختراعَ الوحيدَ للأطفال؛ وأعتقد ببساطة، أنَّ الأطفالَ لا يخترعون أيَّ شيء على الإطلاق؛ بل إنَّ الكبار، على العكس، همُ الذين اخترعوا الأطفال، وهمُ الذين وشوشوا الأسرارَ العجيبَة في آذانهم؛ ثُمَّ بعد ذلك ينزعجُ هؤلاء الرِّجال، هؤلاء البالغون، عندما يعود هؤلاء الأطفال بدورهم، ليَصيحوا في آذانهم. إنَّ المجتمعَ الرَّاشد نَظَّم بنفسِه، حتى قبل وجود الأطفال بكثير، فضاءاته المضادَّة، ويوطوبياته المُوقَعة، وأمكِنتَه الحقيقيةَ الخارجةَ عن كل الأمكنة. على سبيل المثال، هناك الحدائقُ، والمقابرُ، وهناك دورُ الرِّعاية، والمنازلُ المغلقةُ، وهناك السجونُ، وهناك الأنديةُ المتوسطيةُ، وكثير غيرها.

باختصار! أحلم بعِلم -وأشدِّد على *عِلم*- ستكون هذه الفضاءاتُ المختلفةُ موضوعاً له، هذه الأماكنُ الأخرى، هذه النزاعاتُ الأسطوريةُ والحقيقيةُ حول الفضاء الذي نحيَى فيه. هذا العلْمُ سوف يدرسُ ليس اليوطوبيات، ما دام أنَّه علينا أنْ ندَّخر هذه التسمية لما ليس له في الحقيقة أيَّ مكان، ولكنَّه سيدرسُ *الفضاءاتِ الأخرى*، الفضاءات الأخرى بشكل حاسم؛ وحتما فالعلم المنشود سيتَّخذ اسماً، وسيسمَّى، ولقد سبق أنْ سُمِّيَ: علم الأمكنة الأخرى (l'hétérotopologie).

ويجب أنْ نعطيَ العناصر الأولية عن هذا العلم الذي هو في طريقه إلى الولادة.

المبدأ الأول: ليس هناك على الأرجح من مجتمع لا يكوِّن لنفسه فضاءه الآخر أو فضاءاته الأخرى. وهذا، من دون شك، أحد ثوابت كل مجموعةٍ بشريةٍ. لكن والحقُّ يقال، هذه الفضاءات الأخرى يمكنها أن تأخذَ، وتأخذ على الدوام، خلافاً للعادة أشكالاً متنوعةً، لسبب بسيط: أنَّه ما من شكلٍ واحدٍ من الفضاء الآخر، على كل مساحة كوكب الأرض أو في كل تاريخ الكون، ظلَّ ثابتاً إلى الأبد. لربما يمكننا أن نصنِّف المجتمعاتِ، مثلاً،

بحسب الفضاءات الأثيرةِ لديها، بحسب الأمكنَة الأخرى التي تخلُق. المجتمعات المسماة بدائية، على سبيل المثال، لديها أمكنتُها المفضَّلة أو المقدَّسة أو المحرَّمة -مثلُنا على كل حال؛ لكن هذه الأمكنة المفضَّلة والمقدَّسة تكونُ بصفةٍ عامةٍ مخصَّصة للأفراد الذين يدخلون "في أزمةٍ بيولوجية". فهناك منازلُ خاصةٌ بالمراهقين حين وصولهم سنَّ البلوغ؛ وهناك منازلُ معيَّنة ترتادها النساء فترةَ الحيْض؛ وأخرى مخصَّصة للنساء أثناءَ فترة الولادة. في مجتمعنا الحاضِر، الأمكنةُ الأخرى الخاصةُ بالأفراد في حالةِ أزمةٍ بيولوجية اختفتْ تقريباً. لاحظوا أنَّه إلى حدود القرن التاسع عشر كانت لا تزال هناك مدارس ثانويةٌ خاصَّة بالبنين، كما كان هناك الخدمةُ العسكريةُ أيضاً، التي كانت تضطلع بلا شك بهذا الدور: و اقتضى هذا أنَّ التمظهرات الأولى للجنسانية الذُّكورية كانت تجري في *مكانٍ آخر*. وقبل كل شيء، أتساءل إذا لم يكن سفَر شهر العسل هو في آنٍ نوع من مكانٍ آخرَ أو من زمنٍ آخر: فلا ينبغي أن يَجري فضُّ بكارة البنت في المنزل الذي وُلدت فيه، وكان يتوجَّب أن تُفضَّ بكارتُها نوعاً ما في أيِّ *مكان آخر*.

لكنَّ هذه الأماكن الأخرى البيولوجية، هذه الأماكن الأخرى لفترة الأزمة، تَختفي أكثر فأكثر، ويتمُّ استبدالُها بأماكنِ معالجة الانحراف: أيْ أنَّ الأماكنَ التي يوفِّرها المجتمعُ على هوامشه، وفي الشواطئ الفارغة التي تُحيط به، يتمُّ، على الأصح، حفظُها للأفراد الذي يَجنَح سلوكُهم بالقياس إلى الحالة السوية أو المعيار المطلوب. وهذا ما اقتضى وجودَ دور الرَّاحة، والمصحَّات النفسية، وكذلك وجود السُّجون. ولربَّما بجب أن نُلحق بها مأوى المتقاعدين، ما دام أنَّ الفراغ في مجتمعٍ غارقٍ في انشغاله كمجتمعِنا هو بمثابة انحراف – انحرافٌ من جهة أخرى يَجِد نفسَه يتحوَّل إلى انحراف بيولوجيّ عندما يتمُّ ربطُه بالشيخوخة، وهو انحرافٌ ثابتٌ، فعلاً، بالنسبة لكلِّ الذين لم تكنْ لهم على أيِّ حالٍ رصانةُ الموت بالسَّكْتة القلبية (infarctus) خلال الأسابيعِ الثلاثة التي تلي إحالتَهم على التقاعُد.

المبدأُ الثاني لعلمِ الأماكنِ الأُخرى: إنَّ كلَّ مجتمع، طيلةَ تاريخه، يُمكنُه على الوجهِ الأَكْمَلِ أنْ يمتصَّ ويمحوَ أمكنةً أخرى أقامَها فيما سبَق، أو أيضاً يُنَظِّمَ أماكنَ لم يُوجِدْها بَعد.

على سبيل المثال، منذ قرابة العشرين سنة، أغلبُ البلدان الأوربية سعَتْ إلى إزالة دور البغاء بنجاحٍ نسبيّ، كما نعرف، ما دام أنَّ الهاتفَ قد استبدل شبكةً عنكبوتية أكثر تطوُّراً من دور أسلافنا. بالمقابل، فالمقبرة التي تمثِّل في تجربتنا الحالية النموذجَ الأكثرَ وضوحاً للأماكن الأخرى [المقبرة هي *المكان الآخر* بشكل حاسم]، لم تلعب دائماً هذا الدورَ في حضارتنا الغربية. فإلى غاية القرن الثامن عشر، كانت توجد في قلب الحاضرة، مُشيَّدة هناك، في وسط المدينة، إلى جوار الكنيسة، والحق يقال لم تكن تُعطى لها أيّ قيمة احتفالية. فباستثناء أفراد قليلين، فالمصير المشترك للجثث يَقضي ببساطة أن تُرمى فوق ركام الجُثث بدون اعتبار للجثَّة الفردية. وإذن بشكل غاية في الطرافة، منذ اللحظة التي أخذت حضارتنا تصبح فيها مُلحدة، وعلى أي حال، متطرفةً في إلحادها، أي مع نهاية القرن الثامن عشر، بدأنا في دفنِ الهياكل العظمية بشكل فردي. وأصبح كل واحد له الحق أن يحظى بعُلبته الصغيرة، وبتحلُّله الشخصيّ الصغير. من جهة أخرى، لقد تَمَّ إبعاد كل هذه الهياكل العظمية، وكل هذه العُلب الصغيرة، وكل هذه النعوش، وكل هذه القبور، وكل هذه المدافن، إلى الهامش، خارج المدينة، وعلى تُخوم الحاضرة، كما لو كانت في آن مركزاً ومكاناً للعدوى، و بشكل ما، ناقلة للموت. كل هذا التطور لم يحدث -ويجب ألا ننسى ذلك- إلا في القرن التاسع عشر، وبالضبط في قلب الإمبراطورية الثانية. إنَّه في عهد نابليون الثالث، بالفعل، حيث تَمَّ تنظيم المدافِن الباريسية الكبرى على ضواحي المدُن. ويجب ألَّا ننسى -وهنا يتوجب علينا أنْ نحدِّد الأماكنَ الأخرى بدوافعَ مختلفةٍ ومتضافِرة- ذِكْرَ مقابر المصابين بالسلِّ؛ وتقفزُ إلى ذِهني هذه المقبرةُ العجيبةُ لمونتون (Menton)، التي كانتْ تأوي حالات السُّلِّ الخطيرة، في نهاية القرن التاسع عشر، إلى أنْ يقْضي أصحابُها نحبَهم على الكوت دا زير (la Côte d'Azur)[جنوب شرق فرنسا، على الشاطئ المتوسطي]: نوعٌ آخرُ من الأماكن.

ثالثاً: بشكل عام، فأحد قوانين المكان الآخر تقريبُه في مكان حقيقي بين كثير من الفضاءات، تكون في العادة، بل بالضرورة متعارضة. فالمسرح، الذي يعتبر مكانا آخر، يقوم فوق مستطيل خشبته بعرض سلسلة كاملة من الأماكن الغريبة. السينما التي هي

شاشة عرض مستطيلة عملاقة، في عمقها وعلى فضاء من بعديْن اثنين، يُعرض فضاء جديد بأبعاد ثلاثية. لكنَّ أقدَم نموذج للمكان الآخر سيكون ربما هو الحديقة، الإبداع الألفي الذي كان له في الشرق بُعدٌ سحريٌّ بكل تأكيد. الحديقة الفارسية التقليدية هي عبارةٌ عن مستطيل مقسَّم إلى أربعة أجزاء، تمثِّل العناصرَ الأربعة التي يتكوَّن منها العالم، وفي وسطها، في ملتقى هذه المستطيلات الأربع تنتصب في فضاء مقدس: نافورةٌ، ومحراب. وفي محيط هذا المركز، تُغرس كل أصناف النباتات، وكل النباتات الأكثر كمالاً والأكثر بهاءً في العالم يجب أن توجد هناك مجتمعة. وإذا تصوَّرنا بأن السجَّاد الشرقيَّ، هو في الأصل، إعادةُ إنتاج للحدائق -وبالمعنى الحرفيّ، "حدائق الشتاء"- فسنفهمُ القيمةَ الأسطورية لبساط الريح، البساط الذي يحلِّق في سماء العالم. فالحديقةُ هي عبارة عن بساط حقَّق من خلاله العالم بأسره كمالَه الرمزي، وحيث البساط هو بمثابة حديقةٍ متنقِّلة في الفضاء. ونحن نحتار في تحديد إنْ كان ما يصفُه لنا الراوي حديقةً أم بساطاً في *"ألف ليلة وليلة"*؟ إذْ نرى بأنَّ كلَّ جمال العالم يجتمع في هذه المرآة. والحديقة منذ قديم الزمن، كانت مكاناً لليوطوبيا. ويغمرنا الإحساسُ بأنَّ الروايات تدخلُ بسلاسة في الحدائق. ذلك أن الروايات قد وُلدت من مؤسَّسة الحدائق نفسِها. إنَّ النشاط الروائيَ عبارةٌ عن نشاط حدائقي.

ويحدث أنَّ الأماكن الأخرى تكون مرتبطةً في الغالب بالاقتطاعات الفريدَة للزمن. إنَّها مماثلةٌ، إذا شئنا، للأزمنة الأخرى (hétérochronies). بالطبع فالمقبرةُ هي مكانُ زمنٍ متوقِّف ولا يَجْري. بصفة عامة، في مجتمعٍ كمجتمعِنا، يُمكننا القول إنه توجد أماكنُ أخرى هي أماكنُ أخرى للزمن عندما يتراكم إلى ما لا نهاية: كالمتاحف والمكتبات على سبيل المثال. في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت المتاحف والمكتبات مؤسَّساتٍ خاصة؛ فقد كانت تمثِّل ذوقَ أصحابها. بالمقابل، إنَّ فكرة مراكمة الكلِّ، وعلى نحو ما، وفكرةَ إيقافِ الزمن، أو تركه على الأصح يتراكب إلى ما لا نهاية في مكان مُختار، وفكرةَ إنشاء الأرشيف العام لثقافةٍ معينة، وإرادةَ أنْ نحتجز في مكان كلَّ الأزمنة، وكل الحِقب، وكلَّ الأشكال وكلَّ الأذواق، وفكرةَ إقامة فضاء لكلِّ الأزمنة، كما لو كان بمقدور هذا الفضاء أنْ

يكون نفسَه بشكل حاسم خارج الزمن، لهي فكرةٌ حديثةٌ للغاية: فالمتحفُ والمكتبةُ العامَّة تعتبر أمكنةً أخرى من إبداع ثقافتنا.

رابعاً: هناك بالمقابل أمكنةٌ أخرى مرتبطةٌ بالزمن، ليس بصيغة الأبدية، وإنما بصيغة الاحتفال: أماكنُ أخرى ليست سرمديةً وإنَّما زمنية. المسرحُ، بالطبع، ولكن أيضا المعارضُ الشعبية (les foires)، هذه الفضاءات الفارغةُ على تخوم المدن، وأحياناً في وسطها، والذي تَضِجُّ مرةً أو مرتين في السنة بالأكواخ، وبالبضائع المعروضَة، وبالأشياء الغَريبة، وبالمصارعين، وبالنساء-الأفاعي وبالحكواتيات. وإلى وقت قريب من حضارتنا كانت هناك قرى لتمضية العطل؛ ينصرف ذهني بالخصوص إلى هذه القرى السحرية البولينيزية (polynésiens)، التي كانت تمنح، على الشواطئ المتوسطية، ثلاثة أسابيع من العري البدائي والأبدي لسكان مدننا. أكواخ القشِّ في جربة التونسية، على سبيل المثال تُشبه، بمعنى ما، المكتبات العامة والمتاحف، ما دامت أماكنَ أخرى للخلود -إذ يدعَى الناس للتعاقد من جديد مع التقليد الأكثر قدما للإنسانية- وفي نفس الوقت، فإن هذه الأكواخ لهي نفيٌ لكل مكتبة ولكل متحف، ما دام الأمر، عبرها، لا يتعلق بمراكمة الزمن ولكن على العكس بمحوه وبالعودة إلى النقاء، وإلى براءة الخطيئة الأولى. هناك أيضاً، ولقد كان على الأصح بين هذه الأماكن الأخرى للاحتفال، هذه الأماكن الأخرى الدائمة، الاحتفالُ الذي يكون مسرحُه كل مساء المنازلَ المغلقة القديمة، الاحتفال الذي يبدأ مع السادسة مساء، كما في قصر الفتاة إليزا (La Fille Elisa).

أخيراً، هناك أماكن أخرى غيرها لا ترتبط بالاحتفال بل بالعبور، بالتحول، بالإعداد الصارم لجيل. فلقد كان يوكل، خلال القرن التاسع عشر، للثانويات وللثكنات العسكرية، أمر جعل الأطفال يافعين، والقرويين حضريين، والسذَّج ماكرين. وهناك بالتحديد، في أيامنا هذه، السجونُ.

خامساً: أريد أن أقترح كمبدأ خامس لعلم الأماكن الأخرى، هذا الواقع: كون الأماكن الأخرى تمتلك دائماً نظاماً للانفتاح وللانغلاق يعزلها في العلاقة مع الفضاء المحيط.

عموماً، نحن لا ندخل أماكن أخرى كما ندخل طاحونة، أو أننا ندخل إليها لأننا نُرغَم على ذلك [السجون، بالطبع]، أو عندما نخضع لنوع من الطقوس، لنوع من التطهير. تطهير نصف ديني ونصف صحِّي، كما في حمَّامات المسلمين، أو كما في الحمام البخاري الاسكندنافي، وهو تطهير صحي فقط، ولكنه يحمل معه كل أنواع القيم الدينية والنزعات الطبيعية.

هناك أماكن أخرى، على العكس، ليست مغلقة على العالم الخارجي، ولكنها بمثابة انفتاح خالص وبسيط. وكل العالم يمكنه أن يلج إليها، لكن والحق يقال، بمجرد الدخول إليها، نتنبه إلى أن ذلك كان محض وهم، وبأننا لم ندخل أي مكان. فالأماكن الأخرى هي مكان مفتوح، لكنها تمتلك هذه الخاصية لإبقائك في الخارج. على سبيل المثال، في أمريكا الجنوبية، في منازل القرن الثامن عشر، التي كانت دائما تَضع إلى جانب باب المنزل، بل وقبل باب المنزل، غرفةً صغيرةً، مفتوحةً مباشرة على العالم الخارجي، وكانت مخصصة لعابري السبيل؛ بمعنى أن أيّاً كان، وفي أي ساعة من النهار أو من الليل، يمكنه أن يدخل هذه الغرفة، ويمكنه أن يرتاح فيها، ويفعل فيها ما يريد، ويمكنه أن يرحل في صباح اليوم التالي دون أن يراه أو يتعرف عليه أحد؛ ولكن لأن هذه الغرفة لا تنفتح بأي حال من الأحوال على المنزل نفسه، لأن الفرد الذي استقبلته لا يمكنه البتة التسلل إلى داخل المنزل العائلي نفسه. هذه الغرفة كانت تمثل نوعاً من الأماكن الأخرى الخارجية بالكامل. يمكننا أن نقارنها بالأماكن الأخرى للنُّزُل الأمريكية، حيث يمكن الدخول إليها بالسيارات واصطحاب الخليلات، وحيث يتم في آن حماية العلاقات الجنسية غير الشرعية وإخفاؤها، وإبقاؤها على انفراد، دون أن تُترك مع ذلك في الهواء الطلق.

في الأخِير، هناك أماكنُ أخرى تعطي الانطباع بأنها مفتوحة، ولكنه لا يدخلها فعلياً إلاّ أولئك الذين سبق وأن لُقِّنوا الأسرار. يسود الاعتقاد بسهولة الدخول إليها، وأنها متاحة للجميع، لكن الدخول إليها في الحقيقة يضع صاحبها في قلب السرّ؛ على هذا النحو على الأقل كان أراغون قد دخل سابقاً هذه المنازل المغلقة: «*ما زلت إلى اليوم، أذكر أنني لم أعبر هذه العتبات المهيّجة للحواس بدون نوع من الانفعال المشبوب للمرحلة الثانوية. لقد*

واصلت داخلها الرغبة المبهمة العاتية التي تُستخلص من بعض الصور التي لم ترق لي أبداً. وعندما يبلغ الهيجان ذروته، لم أنشغل البتة بالتصنيف الاجتماعي لهذه الأمكنة. وتسميتها بمنازل الدعارة لا يمكن أن يُلفظ على وجهه الحقيقي».

فها هنا بدون شك يكون اتصالنا بما هو أكثر جوهرية في الأماكن الأخرى. إنها تعارض كل الفضاءات الأخرى، اعتراض يمكنها أن تمارسه على طريقتين: إما على طريقة هذه المنازل المغلقة التي تحدث عنها أراغون، بخلق وهم يشي بكل ما تبقَّى من واقع باعتباره وهماً، وإما على العكس، من خلال خلق فضاء حقيقي في غاية الاكتمال، مفرط في التدقيق، وجدّ منسَّق إلى حد يظهر معه واقعنا مضطرباً، وغير منظَّم، ومشوَّشاً: على هذا النحو، اشتغلت المستوطنات، على الأقل في تصور أصحابها، خلال فترة معينة، في القرن الثامن عشر على الخصوص. وطبعاً فقد كانت لهذه المستعمرات أهمية اقتصادية كبيرة، إلا أنه كانت تمنح لها قيمٌ خياليةٌ، ومن دون شك فهذه القيم الخيالية كانت تستمدها من الهالة الخاصة بالأماكن الأخرى. وعلى هذا الأساس حاولت جماعات طهرانية بروتستانتية إنجليزية في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر تأسيس مجتمعات خالية من العيوب بشكل مطلق؛ مثلما حلم الجنرال ليوطي وتابعُوه بإقامة مجتمعات متراتبة وعسكرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. على أن أغرب هذه المحاولات ربما تمثلت في تلك الخاصة باليسوعيين في الباراغواي. ففي البارغواي، بالفعل، أقام اليسوعيون مستوطنة عجيبة، نُظمت الحياة بأكملها داخلها، حيث كان يسود فيها النظام الشيوعي، ما دامت كل الأراضي والقطعان هي في ملكية الجميع، ما عدا حديقة صغيرة تمنح لكل عائلة، فيما المنازل أقيمت في صفوف دقيقة على طول شارعين متقاطعين بزاوية قائمة. وفي عمق الساحة المركزية للقرية، أقيمت الكنيسة، وعلى أحد تخومها أقيمت الثانوية، وعلى التخم الآخر أقيم السجن. وينظم اليسوعيون مساء صباح وصباح مساء تفاصيل حياة المستوطنين بدقة متناهية. وتُقرع دقَّة التبشير في الخامسة صباحاً للاستيقاظ؛ ثم بعد ذلك إيذانا ببدء العمل، في منتصف النهار يُقرع الجرس مستدعياً الرجال والنساء، الذين كانوا يشتغلون في الحقول؛ وفي السادسة يجتمع الكل لتناول العشاء، وفي منتصف الليل يُقرع الجرس من جديد، وهو ما كان يسمى جرس

"الاستيقاظ للتزاوج"، وذلك لحرص اليسوعيين على أن يتزاوج المستوطنون كل مساء ويتكاثروا. وقد قفز عددهم من 130000 في بداية إقامة المستوطنة إلى 400000 في منتصف القرن الثامن عشر. وقد شكل هذا نموذجاً للمجتمع المنغلق على ذاته بشكل تام، الذي لم يكن يربطه بالعالم شيء، إلا من خلال التجارة والمنافع الكبيرة التي تعود على المجتمع اليسوعي.

مع المستوطنة، نحصل على أماكن أخرى هي من بعض الجوانب غاية في السذاجة ضمن السعي لتحقيق وهم. ومع منزل الدعارة، نحصل على العكس على أماكن أخرى تكون في غاية الدقة وفي غاية البراعة لربما نريد تبديد الواقع من خلال قوة الأوهام وحدها. وإذا تصورنا بأن السفينة، السفينة العملاقة للقرن التاسع عشر، هي قطعة من الفضاء العائم، باعتباره مكاناً من دون مكان، يستمد حياته من ذاته، ومنغلقاً على ذاته، حرّاً بمعنى ما، ولكنه منذور حتماً لنهائية البحر، والذي ينتقل من مرفأ لمرفأ، ومن ماخور لماخور، ومن حانة إلى حانة، وصولاً إلى غاية المستوطنات بحثاً عمّا تحويه من نفائس في هذه الحدائق التي أشرنا إليها من قبل، فسنفهم لماذا شكلت السفينة بالنسبة لحضارتنا -وهذا منذ القرن السادس عشر على الأقل- في آن الوسيلة الاقتصادية الضاربة، ومخزوننا الكبير من الخيال. إن السفينة لهي المكان الآخر بامتياز. والحضارات المفتقرة للسفن تشبه الأطفال الذين لا يتوفر لآبائهم سرير رحب يمكنهم أن يمرحوا فوقه؛ وهو ما يجعل أحلامهم تنضب، ويعوِّض التجسسُ لديهم المغامرةَ، وبشاعةُ الشرطةِ الجمالَ المتوهّج لسفن القراصنة (des corsaires).

ميشال فوكو

الجسد الطوباوي، أماكن أخرى

ترجمة محمد العرابي